باب البحـر

بـاب البحـــر

روايـــــة

هشـــام جمـــال

بـــاب البحـــــر

روايـــــة

اسم الكاتب: هشـام جمـال
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٥٨٤٣ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

للنشر والتوزيع
Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

كنا بخير لولا الآخرون

مجهول ،،

لنبدأ ..

من تلك النقطه التى انتهت عندها القصه والمكان الذى كان رحماً لها حتى المخاض ومن بعده .. ، الاحداث جميعها وقعت فى الإسكندريه ، مدينة الرب، المدينه المكتظة بالبشر، التى ياتيها الرب لينظر فى امرهم وعمله، القدر هنا دائماً يركب بساط الريح.. وكذلك الناس، اهل مدينتي يجمعهم ريح البحر وتفرقهم كل التفاصيل التافهة والبسيطة، هنا فقط يمكنك ان تحكي إلى الغرباء شيء وتنساه لأن المدينة كالبرق لا تجمعك بغريب مرتين.

أنا كنت يوماً لعبة القدر وفكرته للتسليه، كل حكايات الارض تروي قصتي بتعديلات بسيطة، لنقول أني النتاج الوحيد لكل قصص وخرافات البشر.

في صباح يوم عادي في الإسكندرية.

كانت السماء زرقاء تحمل بعض الغيمات التى تهدد بالمطر الخفيف، الشوارع مزدحمة، تملأها السيارات والبشر.. كل أنواع البشر، البائعين على الأرصفة ينتظرون الرزق، متسولون ينتشرون في الطرقات يسألون الناس إلحافاً، عجوزيسير شارداً يسأل عن خطاب وشخص ما، يحاول أحدهم مساعدته لتجاوز السيارات ثم يعود ليمسك بيد حبيبته السمراء والتي تشتهي الآن أن تعانقه وسط الطريق لكنها اكتفت بالضغط على يده، ينظر إليها فتحرك شفتيها الورديتين "أحبك"..

الرياح القوية جعلت صاحب الكشك يثبت الجرائد بالحجارة الصغيرة بينما تقف سيده فى الثلاثين بجوار الكشك تتحدث فى الهاتف تغمرها السعادة وهى تخبر زوجها أنها تحمل بداخلها جزءً منه أخيراً، يرفع بائع الجرائد راسه إلى السماء ليدعو الله بالخلف الصالح الذى تأخر عنه ايضاً، تكمل السيدة الحامل سيرها لترى شاب يخلع عنه الجاكت ليضعه فوق كتف أمه ضئيلة الحجم والتى ترتجف من البرد، تتخيل نفسها بعد أعوام مع ابنها فتتحسس بطنها و تبستم..

رجل في أواخر الستين تقريباً يشتري ورود من فتاة فى منتصف عقدها الثاني تبيعه وهى تتمنى ان يهديها احدهم وردة، فكأنها تبيع أحلامها التي لا تتحقق لتخفف عن ظهرها ثُقل ما تحمل، كان فى كامل أناقته جعل العابرون حوله يتسائلون عن وجهته، مظهره مبهج وهو يحمل الورود.

السماء التي مازالت تهدد بسقوط أمطار جعلت الانتظار فى الطريق مستحيل لذلك قررت إحداهن العودة إلى منزلها لأن هاتفها نفذت بطاريته فى نفس الوقت يكاد صديقها يفقدعقله قلقلاً عليها، يسير بعصبية شديدة

فيصطدم بسيدة عجوز تستند على عصا أكبر سناً من صاحبتها، تهرب من البرد فيُسقط نظارتها وتنكسر فيكون على الشاب مساعدتها للعودة الى البيت، لكنه يلمح حبيبته فى سيارة أجرة تتحدث مع شاب وهى تبتسم، يترك الشاب السيدة العجوز ويركض خلف السيارة، تقف العجوز بلا حول ولا قوة ولا نظر تدور فى فلكها بيأس مع قدوم سيارة يتحدث سائقها فى الهاتف، يحاول أن يطلب غداء من أحد المطاعم التى تُوقف خدمه التوصيل فى مثل هذا الطقس، يفكر صاحب السيارة فى حل آخر، لان زوجته تركت له المنزل منذ شهر وطلبت الطلاق، بعدما اكتشفت خيانته كما أنها تنتوي الزواج من حبيبها القديم بعد أن تحسنت أموره المادية، مع استمرار شروده وحديثه فى الهاتف، يصدم السيدة العجوز عند نهاية شارع صفيه زغلول الخالى تقريباً من المارة، ودون أن ينظر اليها انطلق بسيارته عبر الشارع الخالي بسرعة كبيرة، فدفعت عجلات سيارته الماء المتجمع على الجانب الايسر للطريق لتفسد اناقة بنطال رجل يبدو وقوراً، يقف امام احدى الصناديق لتنظيف وإعادة لمعان حذائه الذي أفسده المطر، يخرج الرجل عن وقاره ويسب السيارة وصاحبها، تنظر اليه طفلة فى عامها السادس تقف بجواره فى زي ملائكي تمسك قطعه شكولاته ..

_ بابا عيب

كان(علي) فتى الصندوق الذى لم يتجاوز عامه العاشر يقوم بتنظيف حذاء السيد الغاضب وعيناه تتنقل بين اللحظة واللحظة إلى قطعة الشيكولاته التي تمسكها الطفلة، وفمه يتحرك بتزامن حين تأكل و حين تلعق البقايا على إصبعها..

توقف علي عن التنظيف فدفعه السيد المحترم بحذائه فى كتفه، لم ينظر علي إليه حتى لا يزيد من غضبه واستمر فى تلميع الحذاء لكن قلبه لم يلبث ان شعر بالحنين الى الشيكولاته، فتسللت عيناه الى يد الطفلة ليتذوق من جديد لذة النظر الى قطعة الشيكولاته وخطر بباله فجأة أن يسرقها ويركض بأقصى سرعة ويصعد إلى متن ميكروباص متجه إلى " رأس التين " ومن هناك يسرق قارب صغير ويجدف بسرعة حتى يصل الى إحدى الجزر فيُغرق القارب ثم يدخل الى كهف ليأكل قطعه الشيكولاته ويتلذذ بطعمها الذى لم يتذوقه يوماً كحضن ابيه، لكن ركلة أخرى من قدم السيد اعادته إلى مكانه بخيبة أمل فى أن ينال ما يشتهي ولو لمرة فى حياته، صرخ السيد فى وجه علي كمن لم يغضب قبل اليوم:

_ انجز عملك بسرعه يا نسل العاهرات والحشاشين وإلا ساضعك فى السجن ولن ترى الشمس ابداً.

اهتز قلب علي الصغير بعنف وسقط من يده اللون فأغرق الأرض، لكن أحداً لم ينتبه، وجد علي الشارع قد امتلأ أطفال مع أهلهم، البعض يحمي أبنائه من المطر والآخر يدخلهم الى السيارة خوفاً من البرد، وآخر يمرح مع ابنه و يستمتعون بالمطر، كأن الشتاء وهذا الرجل الغاضب تأمروا ضده في هذا الصباح لتستمر لعبة القدر، استمر علي يمسح حذاء رجل غليظ القلب لا يهتم لكفاح طفولته، فيسأل نفسه:

_ كيف وصلت الى هنا؟

سأخبرك ..

1

_ هل يجب ان تذهب .. ؟

قالتها صفاء وهي تنظر الى زوجها الأسطى صالح عبدالقوي باستجداء، ترجوه للمرة الألف بعد المليون أن لا يذهب، لا شيئ فى الحرب لنا إلا الموت، كل الذين ذهبوا عادوا في صناديق أو لم يرجعوا، زوجها الذي لم يرفض لها طلب طوال سنين زواجهم الآن يفعل، ينظر إليها دون حديث وكأن عليها وفي مثل حالتها ان تقرأ ما بين أجفانه من إجابات..

وقف الأسطي صالح وسط غرفة نومه الواسعة التي يحلتها سرير نحاسي كبير بطراز قديم والذي كان رغبة صفاء فحققها، يتفحص بعض الملابس ليختار الأثقل منها كأن البرد هو أكثر ما يخيفه فى الحرب، وضع بعض الأوراق الرسمية التى قد يحتاجها وأغلق الحقيبة وجلس يحرق سيجارة كعمال المناجم المثلقين بالأوساخ والهموم والقصص القديمة.

جلست صفاء تنظر الى صالح لتشبع عينها منه بينما تحاول إقناع طفلها الأكبر خالد أن لا يبكى ليتأكد أبيه انه ترك رجلاً خلفه.. رجل بخمس سنوات وثلاث أسنان لبنيه، صفاء التي اظهرت الثبات والهدوء ليشعر زوجها أن خالد والطفل الذي مازال يتشكل داخلها فى أيد أمينة وأنها قادرة على رعايتهم لكن فى و اقع الأمر كانت الحرب الحقيقية بين ضلوع صفاء..

هذا الإحساس ذو الصوت الهامس الذى يخبرها أن زوجها لن يعود، ستفقد ذلك الركن الركين الذي طالما احتمت وسكنت داخله يغمرها بدفء لم تعلم ابداً مصدره لكنها أحبته منذ أن لمس يدها لأول مره يوم وضع خاتم الخطوبة في إصبعها، جمعهم هذا الحب الذى يولد من الخلافات التافهة

والأحاديث الطويلة في الليل، الحب الذي ينضج مع اكتشاف تفاصيل شخصياتنا ومحاولاتنا للتو افق والتأقلم والتغير إن احتاج الأمر..

_ لابد ان نلتقط صور لنا .. كعائلة اقصد.

قالها صالح وهو يحاول أن يبدو ك رب أسرة سيعود قريباً، لكن فى اعماق صدره الملبد بغيمات كثيفة لم يعرف سببها أحد حتى هو!؟ ، كان يدرك أنها صورة للذكرى، وقف أمام الكاميرا كالصنم وضع يده على كتفها .. ابتسم بشحوب كجسد بلا روح ..

2

_ رحمك الله يا أبي، عشت رجلاً و مت شهيداً ..

_ رحمك الله يا أبي ..

الجملة الأولى قالتها الابنة "صفية" التي تركها أبوها نطفة في رحم أمها والآن هي فى عامها السابع عشر ولم تعرف عن أبيها إلا ما تحمله أحاديث الناس لكنها آمنت به إيماناً صوفياً بالغيب وحملت عنه بشرته السمراء، الجملة الثانية قالها خالد الذي يحمل قسمات وجه والده وشراهة التدخين وهموم عمال المناجم، بينما فى الخلفية يصدر صوت آيات قرانية من "كاسيت" اشتراه خالد من أحد الجيران حينما عاد من الخليج بينما وقفت صفاء التي تحضر "نذر السنوية" الذي يقومون كل عام بتوزيعه "رحمة ونور" على روح الشهيد..

ارتفع صوت طرقات غريب على الباب المفتوح، تبادل الثلاث نظرات متعجبة،أيقنو أنه شخص غريب لأن أهل الحي يعرفون بأمر خروجهم فى هذا اليوم فلا يأتهم أحد إلا في المساء، فتح خالد الباب ليجد شاب فى العقد الثالث، بعد أن أدخله و تبادلوا التحية، أخذ رسول القدر في الكلام..

_ أنا عادل كامل ابي كان زميل لرجل هذا البيت في الحرب، اعطاني والدي هذا الخطاب الذى حمله من والدكم منذ سنين الحرب ولأسباب خاصه لم يستطيع إحضاره لكنه اوصاني قبل سفري بلحظات بتوصيله..

وضع عادل الخطاب على الطاولة، ساد الصمت دقائق تُشعرك أنها عقود كاملة، جلس الثلاثة لحظات ينظرون إلى الخطاب بملئ القلب والعقل، كل منهم يمني نفسه بعبارات حب واشتياق وحكايات الحرب والبطولة، وبعد

نفاذ صبر الثلاثة تطوع خالد لقراءة الخطاب، فتحه بحرص لأن أور اقه اصبحت خريفية صفراء هواء صدرك قد يحطمها ..

قصة " الرجل صاحب الخطاب " الاسطى صالح عبد القوي "

_ إنت الف بنت تتنماك.

تلك القصة التي كانت والدة صالح ترويها له كل يوم، تعدد له مميز اته، طول و عرض و ورشة كبيرة و شقة يرمح فيها الخيل، "دبلون" صنايع، ماذا سيطلبون غير ذلك، أخذت القصه تنمو بداخل صالح كل يوم، حتى تحولت إلى إجابه تلقائية تخرج حين يسأله أحد لماذا لا يتزوج حتى الآن:

_الف بنت تتمني ، لكني لا افكر في الأمر..

العمر يمضى و صالح يقترب من منتصف العشرينات، كانت الأم تلح على ابنها الوحيد ليتزوج لتحمل له ذرية قبل أن تموت، فكر صالح في الأمر بجدية وضع نصب عينيه أجمل فتيات الحي و أكثرهم ثراءً و تعليماً، وضع في ذهنه أيضا أنها من بين كل البنات اللاتي يتمنونه، قضى شهور ير اقبها كل يوم حين تخرج من منزلها و ينتظر عودتها، أحبها وأخبر أمه بالأمر لتذهب لخطبتها، وهناك تتحول تلك القصه إلى خُر افه غير مقنعة لطفل في الخامسة من عمره، رفض أهل الفتاة طلب صالح بل رفضت الفتاة مقابلته من الأساس وظلت فى غرفتها إلى ان غادروا، كان الأمر صادم و محطم لكل ما آمن به صالح، فمع أول اختبار لأصالة قصته تخسر مصداقيتها وتتحول إلى نكتة سمجة لا تُضحك إلا الحاقدين على صالح.

لا تصدق تلك الحكمة القديمة التي تقول :

"المطرقة التى تُحطم الزجاج هي نفسها التى تُشكل الحديد"

مجرد خرافات، فالزجاج الذى يتحطم يبقى محطم ولا يصلح لشيء، والحديد الذي تشكل، تغير تماماً، ولم يعد يشبه نفسه الحقيقية، كل ذلك بسبب تلك المطرقة التي وضعت نفسك أسفلها تنتظر المعجزة.

تحول صالح إلى شيء آخر، تحطم، لم يعد يشبه نفسه الحقيقية، هجر الورشة و أمه، طاف المدن والقرى بلا هدف، يهرب من صدى قصته و النكتة وضحكات الآخرين، دخل الخمارات وعرف الخمر كصديق، سكن أحضان المومسات وتخيل بعضهم تلك العروس التي رفضته فمارس معهن العنف لا الجنس، فيحصل في المقابل على علقة موت من حراس تلك المنازل، عاد الى بيته وقد تحول إلى بقايا.

حقق طلب أمه الأخير وهي على فراش الموت و تزوج من بنت الجيران، كانت جميلة كندى الصباح و صوت أم كلثوم، كانت بيضاء كالحليب وهو الشاب الأسمر الذى يمزح معه أصدقاؤه و يلقبونه "الزنجي" لا يعلم كيف قبلت به، ما الذي أغراها في هذا الحطام الذى لا يصلح لشيء؟

الطبيعة الإنسانية تقضي بأننا نستند على أقرب شيء لنا وإن كان ظلاً .. حين نكون على وشك السقوط ..

كل صباح يستيقظ وهو ينظر إلى وجه صفاء و يتسائل عن سر تلك السعادة التي تسكنها، وينفي عن نفسه أن يكون هو مصدرها، لم يكن زوج أو أب مثالي لكنه حاول ان يبدو كذلك، كان سؤاله عن سبب زواج صفاء منه بلا إجابه حتى أنجب طفله الأول، والذى لم يكن يشبهه في أي شيء، ربما شيء تافه، لكن مع اضطراب صالح و تلك الشكوك التى اخذت تنمو داخله حول الأمر إلى مأساة كبرى، لم يفصح عنها لأحد و أسرها في نفسه.

كان يهرب من المنزل ومن حضن زوجته، فكر في السفر لكنه فشل، إلى أن تم الإعلان عن فتح باب التطوع فى الجيش، كانت الاستعدادات تجري لخوض حرب ثانية، قرر صالح الالتحاق بالجيش، قرر ان يستكمل سلسلة الهروب..

نص الخطاب ..

" كنت قد عاهدت نفسي ان لا أكتب شيء إليكم أو أذكركم مع نفسي البائسة ككل الجنود حولي، أنا الجندي الوحيد الذي فر من الحياة إلى الموت أواجهه كل يوم لكنه يمتنع عن مواجهتي فهو جبان، لا يقوى على المواجهة دائماً ما يباغتنا حين نكون خائفين.

حياتي في المنزل كانت جحيم، أحترق بين جدرانه ليل نهار، زوجتي التي تزوجتها فقط لأرضي أمي لم أحبها ابداً، كنت دائماً أرتاب فى أمرها، لا أعرف لماذا و افقت أن تتزوجني؟ وكيف أحبتني هكذا و أنا العبد الأسود الذي وصمه الرب بالعار للأبد، كيف لها ان تحبني وهى الجميلة كندى الصباح وكصوت ام كلثوم وهى تشدو لنا أن نقاتل ونقاتل لأجل مصر؟، حين أنجبنا لم أشعر أني أصبحت أب، طفلي الأكبر ذكر وجهه كالحليب رغم أن الجميع قال أنه أخذ لون أمه، لكن لم أصدق ذلك ولن أصدق، قررت الهرب قبل أن أصاب فى ثمرتي القادمة و التي لاأتذكر في أي ليلة غرست بذرتها و هل حرثت الأرض من بعد أن أكل الجراد زرعتي الأولى؟؟..

أمس قررت أن أخبركم بكل شيء لأني تعاقدت مع الموت، إستجمع قوته وحدثني عن أن ثقيلي مع هذا السر هو السبب الذي يمنعه من حملي، لذلك كتبت، رغم قسوة ما أخبركم به و ضراوته إلا أنه ربما يظل محض تخيلات في رأسي..

سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير، انصرف عادل ومع إغلاق الباب سقطت الصورة العائلية من على الحائط فلم يقم أحد لإعادتها، انقطعت الكهرباء وساد الظلام ثم عاد في كل الحي لكن هذا المنزل ظل قابع في ظلام تام ولانهائي..

زمن ضاع بين ما حدث و ما سيقع بعد ذلك، لا أحد يعرف ما الذي حدث، لم يحكِ أحد منهم شيء، لكن بالتأكيد أشياء غير عادية كأن يصبح الوطن فى قلبك وليس مجرد عنوان على أظرف الخطابات...

3

_ الليل ستار لمن هم مثلي، من يختبئون من أنفسهم في عيون الناس، يأتى الصباح محملاً بزحام الأفكار والأشخاص، فيكون الهروب شجاعة الوحيدين، لكن هذا الشهر لعين لا بيع ولا شراء، الرجال أصابتهم العفة، بل هو شهر اللعنات على أي حال، شهر الخطابات الغامضة، الموت، الرحيل، شهر بدايه الهوايات.. هوايتها الوحيدة تقصد، لم تكن تطلق على نفسها عاهرة، لكن الناس فعلت ذلك، كانت صفية تختار الرجال، تشتهى ذوق محدد من بين كل الرجال وأشباه الرجال، كانت ملامح والدها وحكايات الناس عنه، رائحته العالقة في تلك الثياب التي بدلها قبيل رحيله و أبقت أمها عليها كما هي حتى لا تفقد أثره، كانت جميعها مرجع لها في اختياراتها، حتى لما بدأ الأمر منذ سنين كان المدرس يهدهدها كطفلته التى تبكي، شعرت بدفء العمال فأرادت ان تتعمق أكثر، وفعلت، هو لم يمانع بحكم طبيعتنا الحيوانية لكنه لم يفهم بحكم طبيعتنا البشرية..

تحركت صفيه بخطوات غاضبة مبتعدة عن مدخل فندق سيسل تلعن كل أيام هذا الشهر، لم تقرر بعد إن كانت ستعود للبيت الممتليء بالفراغ أم ستبقى أمام البحر قليلاً، ساقتها قدماها للسير، أما عقلها فكان يسبح في فضاء من الذكريات الباردة كطقس هذا اليوم، تذكرت أبيها الذي انتهك قداسة كل معتقد أسرى آمنت به، زرع بذور فاسدة فى أرض بكر فأثمرت حصاداً مشئوماً، لم تتحمل الأم نظرات أبنائها التي كانت كالاحتضار البطيئ جداً ربما، لذلك سلكت درب الموت الرحيم الذي خلصها من حياتها التعيسة، أما خالد، الأخ الأكبر، شبيه الأب وعدوه، بعد أن قرأ الرسالة ظل غارقاً في صمت لأسبوعين كنا نسمعه كل ليلة يبكي في غرفته، وحين انتهى

وجفت منابعه حمل حقائبه وخرج، وترك كأبيه خطاب لم يفتحه أحد، حتى الآن، فلم يعد داخلها مكان لقبر آخر ..

لم تكره والدها، ولم تحبه، لكنها تعتقد أنه كان يوماً إنساناً طيباً، لم يُخلق من شك، يوماً جلست تستمع إلى إمها وهي تحكي عن يوم عرسها، كيف أن أبيها جاء متاخراً ثلاث ساعات وحين سأله البعض عن سبب ذلك اخبرهم وكأن الامر عادي: "أنه لم يكن ينوي الحضور من الأساس لكنه لم يجد شيء آخر يفعله".

نعم جرحني هذا الكلام لكن في المساء، حين أصبحنا بمفردنا، اعتذر لي كثيراً ليس قولاً.. عانقني طويلاً .. فسامحته، من لحظتها عشقت هذا الرجل الذي لم يخفي ضعفه أمام امرأة..

لذلك آمنت صفية أن أبيها كان له نصيب من اسمه فى وقت ما، لذلك تتبعت أثره في كل مكان..

كانت صفية في منزلها حين انتهى هذا الكابوس، منزل جديد ليس به ذكريات قديمة، جلست على الأريكة التى تنام عليها معظم الأوقات، تحاول أن تنسى هذا الشهر الملعون، فهو ما زال فى بدايته، هناك أيام قادمة تحمل أشياء غامضة كعادتها، النوم هو الحل، فربما في الأحلام تجد سراباً يؤنس وحدتها ويمنعه من ابتلاعها..

4

كان الليل بلا نجوم و القمر شاحب، الناس في الطرقات كالأشباح، يحتلون الزوايا المظلمة والحارات المخيفة عيونهم قناص يترصد العابرون ليسرق منهم سلامهم الداخلي بلا أى سلطة، حتى السلطة لا تناقشك ولا تسأل من أنت إلا بعد ان يمزق السجن روحك ..

أفكار روادت محمود عن حلمه لينجو بنفسه لكنه تمسك بتلك اللذة التي تنتظره بين شفتي حبيبته كامليا، حاول أن يطمئنها ويقسم دون أى براهين أن كل شيء سيكون بخير، تمسكت بيده أكثر اختبئت فى جسده وهم يسيرون في الطرقات تحت أنظار رجال عيونهم تصرخ بالغضب تجاه محمود الذي يحوز هذا الجسد الفاتن لنفسه فقط وشهوة تصرخ فى أجسادهم الميتة، كل هذا تعبر عنه أفواه منافقه فيقترب صديق لآخر يقف بجواره على قارعة الطريق ..

_ لم يعد هناك أخلاق ..

_ آه والله .. هذا الجيل فاسد

نظرت كامليا الي محمود بيأس تام وعبارة لا جدوى ترتسم فى عيونها، جلسوا أسفل تمثال سعد زغلول فى ميدان "محطة الرمل" كان المكان خال تقريباً من الناس فسمح للعشاق أن يتوسدو أكتاف وأحضان بعضهم البعض لدقائق ربما تجعلهم يتحملوا قسوة الحياة، اليوم كان يوشك على الانتهاء، أراحت كامليا راسها على كتف محمود وعانق بكفيه يدها ..

_ يبدو أن هذه البلاد ترفض حبنا، حتى القبلة لا تسمح لنا بها.

_ أشقياء في حبنا ككل القصص الخالدة، هل تريد ان تقبلني بسهولة

ضحك العاشقان كأن الارض لا تحمل غيرهما، نظراتهم دافئة في ليل شديد البرودة، اقترب محمود من وجه محبوبته فلم يعد ممكن لأحدهم أن يميز انفاسه، نبض الشفاه تضاعف وتهيئت الروح لان تتذوق ثمار الجنة، وجهها كان حريري الملمس بينماحاول محمود أن لا يجعل ذقنه المشعث يؤذيها، طلاء شفتيها له مذاق الفراولة وضع يده اليسرى على ثديها بلطف ولم يحركها، ثديها صغير كحجم البرتقالة، لا بل أكبر قليلاً لكن له نفس الرائحة.

_ ورد، تشترى ورد يا بيه.

انتفض العاشقان، نظر محمود الى السيدة العجوز بغضب شديد ولم يجبها، أمسك يد حبيبته و ابتعد، كان جسده ما زال ينبض ويشتهي أن يعرف باقي الطعوم، لمح مدخل إحدى العمارات مظلم قليلاً ادرك أنه المكان المناسب..

_ أور اقك الشخصية.. و أنتِ أيضاً .. ثم ما علاقتكم ببعض، ولماذا لهذا الوقت المتاخر في الطريق.

من العدم ظهر شرطي ضخم الجسد تبدو ملامحه خُلقت على غضب، الحقد يملأ وجهه يتحدث بنبرة صوت تشعرك بانه قبض عليه بالجرم المشهود، لم ينظر لشيء إلا صدر كامليا، " هذا الجبان اراهن بانه يتخيل نفسه يعتصرهما بيديه الخشنة" ، تفحص الأوراق وجسد كامليا ثم أمرهم أن يعودوا إلى منازلهم فى الحال ..

_ إن لمحتك تمسك يدها حتى.. ساضعك فى السجن ولن ترى الشمس ابداً .

تنحى جانباً الضابط يتابع العاشقان ومسافة متر تفصل بينهما، كل بضع خطوات ينظر محمود للخلف فيجد الضابط مازال يقف محدقاً إليهما أو بشكل أدق الى مؤخرة كامليا، يشتهي أن يتحسسها بغرض التفتيش وإجراءت الأمن، نظر محمود إلى كامليا التى اصفر وجهها وحاول ان ينطق بأى شئ يطمئنها لكن روحه كانت تنتفض، رغم أن الضابط لم يفعل شيء غريب، تقاليد وظيفته لكن عيناه كانت تعدهم بانهم سيلتقون من جديد ..

5

كان النهار قد انسحب كمحتل، وعاد الليل يفرض سيطرته الشرعية على الكون..

وقف أعلى تلك العمارة المرتفعة المواجهة للبحر يراقب الناس فى الطريق بأحجامهم الصغيرة، يتأمل لذة ان يضع اصبعه فوق شخص لا يعجبه ليسحقه او يمسكه داخل قبضته حتى ينتهي أمره، حاول كثيراً أن لا يمارس تلك اللعبه حتى لا تكبر داخله الرغبه فى الانتقام من الجميع لكنه لم يفلح ..

التفكير في الانتقام لذه خفيه تمنحنا القوة لنستمر .. حتى وإن ظل مجرد تفكير.

_ أتمنى ان تخرج تلك الفكرة من راسي ..

قالها ثم تنهد بعمق، أخرج مع انفاسه الكثير من الحطب المحترق في صدره كمدفئة في قصر ارستقراطي يمتلكه شاب يدعى مروان، وحيد كيوم الحشر، كثيراً ما تمنى ان يعيد الله النظر فيما حدث له ويساعده، يتمنى لو يفقد الجميع الذاكرة حتى لا يتذكروا شيء عنه فيقدر أن يسير بين الناس دون الحاجة أن يسلك الدروب الضيقة لتجنب نظراتهم، حاول كثيراً أن يخرج خلال النهار لكنه يعود منهك القوى، ممزق، آلاف النظرات والعبارات تذبحه، رفض تام فى التعامل معه وكراهية واضحة وعداء غير مبرر ضده .. ، كان مروان يعتقد أن السواد الأعظم من المجتمع يعملون ضمن الطابور الخامس لصالح الحكومة، الكل يتربص بالكل، ينتظر لحظة غفلة منه ليضع على ظهرك لافتة تحمل اسم حزب محظور او نشاط سري او تهمة لم يجدوا مرتكبها، عيونهم دائما تراقب من وجه بائع الجرائد، سائق المكروباص، صانع الفلافل، هذا المتسول الذي ينام على رصيف البحر، حتى ان بعض

سكان العماره متواطئن معهم ، فحاول مروان ان يظهر امامهم بشكل طبيعي او لا يظهر اطلاقاً .. و ربما خُيل له كل ذلك ؟!

تحول الى كائن ليلى يعمل فى تنظيف السيارات فى الجراج ، مع الساعات الاولى للنهار يعود لغرفته ، لا ينام اكثر من ساعتين ثم ينتفض وهو يصرخ فيخشى انيعود للنوم من جديد ويقضى باقى النهار فى القراءة والتى تكون ملاذاً له مؤقتاُ حتى تبدأ خيالاته فى العبث بترتيب الكلمات وحذف النقاط من فوق الحروف واحياناً يجد نفسه يتلعثم فى هجاء كلمة وكأنه نسي القراءة، فيثني طرف الصفحه ويغلق الكتاب ، يخرج لينظف بعض السيارات التى نظفها منذ ساعات قليله ..

عشق الليل كثر منذ ان عرف ميعاد رجوع كامليا لشقتها كل يوم فى نفس الموعد، كان يختبئ أعلى السلم ليراها وهى تخرج من المصعد وتقف لحظات لتُخرج المفتاح من حقيبتها، أحيانا يطول الأمر لو أن كامليا نسيت المفتاح فتكون مجبرة ان تنتظر والدها " الأستاذ سعيد " ان يفتح لها الباب.

كانت حلاوة الدنيا التي ابداً لم يتذوقها تتلخص فى هذه الثوان بالنسبة للوقت الطبيعي و في توقيته هو كانت ساعات تسمح له بأن يعرف حالتها النفسية، حيث أنه توصل إلى أنها ترتدي الملابس بدرجات اللون الازرق المختلفة فى الأوقات الطبيعية لكن حين يكون هناك أمر يعكر سواد عينيها ترتدي ألوان غير متناسقة ولا تحمل حقيبة ظهرها حتى انها تخرج صباحاً وتمر فوق الجريدة الموضوعة على عتبة الباب دون ان تحملها للأستاذ سعيد، أحب مروان شعرها فى أيام حزنها حيث أنها تجمعه في الخلف على شكل "ديل حصان" أما في باقي الأيام فكانت تطلق له الحرية فيحيط بوجهها الذي يبدو كالشمس البيضاء..

تمنى مروان من الله ان تنسى كامليا المفتاح كل يوم..

6

_ كيف حالك يا أبي .. ؟

لم يجبها الأستاذ سعيد و نظر إليها بغضب لأنها جعلته يقطع قراءته في القانون ليفتح لها الباب، عاد الأستاذ سعيد ليجلس مكانه، دخلت كامليا غرفتها الواسعة، لا تعلم لماذا تعود كل يوم لهذا البيت الممتليء بالفراغ، لم يعد فى البيت نبض لقلب حي، قد مات قلب الأستاذ سعيد بعدما هجرته زوجته وماتت..

_ كان اسمها .. لا اتحدث عن أمي ، فالأموات لهم حُرمه ..

حاولت كامليا إنهاء المكالمة مع محمود سريعاً لتبديل ملابسها، والحقيقة أنها حين تكذب تصاب بنوبة سعال شديدة، و ها قد بدأ الأمر..

كح .. كح .. كح ...

جاء الأستاذ سعيد يحمل كوب الماء وتحت ذراعه مرجع للقانون المصالح الحكومية و الأشغال، اخذت كامليا الماء بينما جلس أبيها على طرف السرير يقرأ، نظرت إليه وبداخلها إحساس بعطف شديد يخالطه اتهام بالسذاجة، الأستاذ سعيد قضى سنوات حياته يحمي ثغرات القانون لكنه لم يستطع أن يحمي منزله من ثغرة كانت سبب كل المصائب، حاولت ان تقنعه ان يتزوج مرة أخرى لكنه رفض.

وحين خرج للمعاش لم ينس القانون، ظل يعكف على الكتب والمراجع لإيجاد ثغرة فيه تعيده للعمل ..

أصدر هاتف الأستاذ سعيد صوت لاستقبال رسالة، أخرج هاتفه من جيبه وجد الرسالة تحتوي على منحة من شركة الاتصالات بدقائق مجانية.

ابتسم الأستاذ سعيد بتهكم :

_ دقائق مجانية .. هل تريدين أن تستخدميهم

_ شكراً .. سوف أنام الآن.

قبلها الأستاذ سعيد على خدها، هي تحب تلك القبلة كما تحب ايضاً حين يقف عند الباب ينظر اليها لثوان ثم يخرج، تعشق حين يتسلل في الليل إلى غرفتها ليتأكد من أن الأغطيه تدفئها ثم يلثم كفها ويخرج، أحيانا تدعي النوم فيكشفها ويجلس ليقرأ لها من القرآن حتى تنام، خرج الأستاذ سعيد من الغرفة وهو ينظر إلى رسالة المنحة من جديد، فكر في شخص يتحدث إليه ولساعة لم يستطع أن يحدد شخص يمكنه الاتصال به، جلس في الصالة يبحث عن أحد و أدرك لأول مرة مدى اتساع المكان من حوله..

7

كان محمود يهم بالخروج من البيت، يتجاوز درجات السلم بحذر خوفاً من انهيارها، البيت قديم بعمر سنين الإحتلال والاستقلال والحرب والسلام، سمع صوت يغني وهو يعبر أمام الشقة فى الطابق الثاني، انه الأستاذ كامل محفوظ، اقترب محمود من الباب وهو يحاول أن لا ينفجر ضاحكاً، الأستاذكامل يغني "بحلم بيك" وتكاد أنفاسه تنقطع لكنه مصمم على الغناء، فتحت الباب فجأه حنان زوجة الأستاذ كامل، جميلة الجميلات ومهرة أفضل الفرسان، لتضع القمامة بالخارج، ابتسم محمود بينما حاولت هي إحكام غلق "الروب" كرد فعل طبيعي لكنه الآن يبدو غريب؟!

أشارت حنان إلى محمود فدخل، طلبت منه وهي تضحك أن يساعدها فى إقناع زوجها أن يرتاح من الغناء.

الأستاذ كامل أصيب منذ فترة ليست بالقصيرة بفقدان ذاكرة جعله لا يتذكر الكثير من الأشياء عن حياته الشخصية أو يذكرها دون ترتيب، هذا بخلاف ضعف فى السمع بسبب قذائف الحرب و قلبه الذي لم يحتمل أوقات إفلاسه و بيع ما كان يملك لصالح البنوك ..

جلست حنان بجوار محمود ير اقبان الأستاذ كامل وهو يغني، تسربت إلى أنف محمود رائحة تشبه البرتقال فنظر إلى حنان خلسة لمح فخذها الأبيض وقد انزلق الروب من فوقه، انتبهت حنان لنظرات محمود إليها فابتسمت دون ان تغطي ما قد كُشف بل انها كشفت جزء أكبر حين وضعت ساق فوق الأخرى، كانت حنان تكتسب ثقتها فى نفسها من نظرات الآخرين إليها، إفتتان الرجال بها و تعطرهم بر ائحة جسدها.

سكت كامل ونظر إلى زوجته.

_ اعلم انك زوجتى ، لكنى لااتذكر إن كنت احبك ام لا

ظهرت على محمود علامات التعجب لما يسمعه، كيف يمكن للإنسان أن ينسى إحساسه تجاه شخص ما، نظر إلى حنان دون ان يراها، يعلم قصة زواجهما، الجميع يعلم تلك القصة، كان الحب العذر الوحيد الذى تقبله الناس وأنساهم ما فعله كامل وحنان، لكن حقيقة هذا الحب لن تكون واضحة لو أننا وضعنا فى الاعتبار قدرات جسد حنان على الإغواء وكذلك المميزات السحرية لثروة كامل سنعرف أن الأمر لم يكن بهذه الأفلاطونية التي يظنها الناس، فبعد أن أفلس كامل جاء ليسكن فى تلك الشقة التي كان يترفع عن طلب إيجارها، لم تكن بهذا السوء لكنها ليست بفخامة القصر أو الشاليهات التي تعانق الموج، ابتسمت حنان وهي تعانق كامل من الخلف ..

_ لا يهم يا كامل ، فانا زوجتك على أي حال ..

دخل كامل غرفته بينما فتحت حنان الروب أكثر، أمسكت حنان طفلها الكبير من يده الى إحدى الغرف، لتروي شبقها، كانت جميلة وهي عارية، وقفت أمام المرآة تتأمل جسدها الذي مازال يحتفظ برشاقته، تمرر يدها من أعلى إلى أسفل، جلست فوق محمود، تعشق نفسها فى هذا الوضع، تتحرك بجسدها بشكل مثير وهى تقبل كل سنتيمتر من جسده، وهو الذي شعر بموجة حارة أصابته في جسده فلم يكن هناك مفر من أن يحرق جسدها بالنار الثائرة داخله، سيفان يصطدمان كلاهما يريد ان يحوز غنائم أكثر.. وأكثر، حصلت هي على الغنيمة الكبرى و خبئتها في رحمها، وسقط الفارسان جثث هامدة لا يقدران إلا على التنفس.

نظرت إليه بامتنان كبير، وضعت رأسها على صدره و نامت..

8

كانت قطعة الشيكولاتة تلمع فى يد الطفلة وعين ماسح الأحذية لا تفارقها، تأكلها بهدوء كأنها ودون قصد تتلذذ بالتلاعب به، إقتربت الفتاة أكثر منه حين بدأ المطر بالسقوط، رائحتها عَطِرة، تسللت إلى أنفه بدلالٍ أنثوي، رائحتها تشبه الـ...

_ تعالي تحت المظلة يا طفلتي.

إحساس بارد يتسرب إلى أعماق صدرعلي، يزيد من تراكم الثلج داخله، لم يكن مصدره جو الشتاء لكن أيضاً موت الأمنيات داخلنا يصيب بالبرد الذي لا دفء في الكون ينهيه، المطر يتزايد بينما هذا الغليظ الواقف منشغلاً بالهاتف ولم يبتل، وضع المظلة فوق ابنته يحميها بينما الريح تخشاه فتبعد الأمطارعنه، الحقيقة أن للسلطة فوائد دائماً.

_ ألم ننتهى يا ابن الزنا .. ؟

_ أوشكت يا باشا

ابن الزنا .. !! يا نسل نكاح كلب أجرب أعرج لأمك فجاءت بك إلى الدنيا.. ملعون كيوم خروج المسيخ الدجال..

أمى كانت يد الله في الأرض، طيبتها والقسوة، حكت لي يوماً عن نفسها، سكتت طويلاً ثم أغرقت الدموع عباءتها الخضراء.

أمي شجرة البرتقال ..

كنت أعشق حضنها لتعلق بي رائحتها فيظن الأولاد أنى أتناول الفاكهة

كانت تهوى جمع الذكريات، تأخذ من كل شخص تعرفه تذكار مهم، لكن لما عرفت أبي لم تجد فيه شيء يصلح للذكرى، فأخذتني أنا.

_ لا أريد الشيكولاتة يا أبي

كان منشغل عنها بالهاتف..

سأخطفها وأركض، وبالتأكد سيحاول اللحاق بي لكنه لن ينجح فحذائه ناعم من الأسفل لن يصمد أمام الأرض المنزلقة بفعل المطر، سأختبيء أسفل الدرج و أتناولها قطعة قطعة، لا.. ستنتهي بسرعة سألعقها ببطء شديد ..

_ إن فعلت ذلك سأضعك فى السجن ولن ترى الشمس ابداً

قالها السيد في الهاتف وكأنه يقرأ أفكار علي، تجمد علي وانكمش في نفسه و أسرع فى عمله.

9

_ الليل بارد كالرصاص، وهذا الشهر ما زال يزحف على أيامي يقتلها.

كانت صفية تقف مستندة على إحدى السيارات تدخن سيجارة وقد أصابها ملل كبير، كل ما حصلت عليه خلال هذا الشهر بعض المعاكسات من شباب بائس وضابط قد نال ما ناله منها ليدعها تعمل دون ان يضايقها، قررت أن تسير قليلاً حتى لا تتجمد مكانها، عبرت الشارع لتسير على امتداد البحر، الطريق أمامها خالٍ من الناس، ظهر شاب أمامها وهو يحمل زجاجتين من البيرة الرخيصة، لا يبدو هذا الشاب فى كامل اتزانه الريح تعبث به فلم تتمكن صفية من معرفة لون عينيه.

_ نجلس هنا .. أنت زجاجة و أنا الأخرى .. اسمعينى فقط ثم اذهبي ..

حاولت صفية التحرك بعيداً عن الشاب الذى لم يمنعها، لمحت في عينيه شئ يشبه الدموع، داخله جبال من الثلج يمنعها الزمان البارد والأشخاص من الذوبان، لذلك مستحيل ان تكون هي من تنقذه، تحركت بخطوات سريعة لتبتعد عن هذا الشاب، فـ قلبها ممتليء بالموتى والراحلون، فلم يعد فى القلب مكان لقبر آخر..

لم يعد فى الفلب مكان لقبر آخر..

كم مرة عليها أن تكرر هذا الكلام لنفسها حتى تبتعد عن أى شيء غامض حتى لا يهدم حياتها، كم قبراً يمكن للقلب أن يتسع له، كانت الإجابة حاضرة على الفور في ذهنها.

_ على قدر الأشخاص التي تتعلق روحك بهم.

القلب هو أقرب الأماكن لدفن موتانا و أكثرها حِفاظا على ذكرياتهم وأجسادهم فلا ظلمات قبر ولا لصوص أو ناكحي موتى.

10

_ أهلاً استاذ سعيد، في غاية الفرح لسماع صوتك، لكني مشغول الآن سنتحدث في وقت آخر.

_ هذا الهاتف غير متاح حالياً

_ من يتحدث، من يكون الأستاذ سعيد، لا أتذكر أحد بهذا الاسم.....

_ صديقي القديم، كنت أحسبك ميتاً، سأدخل إلى المصعد وسينقطع الخط.

_ أستاذ سعيد !! كلنا بخير لكن الساعة الواحدة صباحاً، هل هناك شيء ؟

_ لا يا أستاذ يا محترم انا لست مدام سعاد، إحترم نفسك.

_ مكتب نهى الر اقصة، أفراح، حفلات، ليالي خاصة .. تحت امرك

_ .....

_ .....

عالم الأستاذ سعيد يضيق بسبب تلك المنحة التي كشفت الزحام الز ائف فى حياته، كشفت له منازل خاوية في ذاكرته هجرها سكانها من زمن ..

تذكر الأستاذ سعيد حين كان محل ترحيب من الجميع ومزار مقدس لطلب الأمنيات والأحلام حيث كان مزار يتميز بسرعة و دقة تنفيذ ما يطلب منه، أما الآن فهو نبي بلا رسالة مقدسة ، بلا معجزة ، هجره الأتباع والمريدين و توقفت النذور والقر ابين، أصبح طريقاً مهجوراً لا تدوسه قدم..

11

كل ليلة كانت كامليا تحلم بالضابط وهويتحسس ثديها ثم يتحرك بيده للأسفل، يتوقف قليلاً فوق بطنها ثم يتحرك نازلاً من جديد فتستيقظ من نومها مفزوعة وهى تبحث عن الضابط فى الغرفة..

مضى يومان أو ثلاث لم يلتقي محمود وكامليا خوفاً من ظهور الضابط من جديد، فكان حديث الهاتف فى البداية بديل لكنه أبداً لا يعوض روعة اللقاء، عناق الأيدى وجنس العيون العفيف والنشوة التي تأتي من وقع كلمة أحبك على أذن عذراء .. زاد الشوق عن حد الهاتف فقاد كلاهما بلا أدنى تعقل للقاء فى نفس المكان، وقف ينتظر قبل الميعاد بنصف ساعة وهو ينظر حوله من حين لآخر ليتأكد من عدم وجود الضابط فى المنطقة، ترددت كامليا كثيراً قبل أن تخرج، وبعد أن فعلت، استقلت سيارة تاكسي وطلبت منه أن ينزلها أمام حديقة محطة الرمل تماماً، كانت فكرتها أن تخرج من التاكسي بسرعة و تركض إلى حضن محمود لتختبيء عن الأنظار، حين رآها محمود قادمة ركض إليها بسرعة وعانقها بشدة، دام العناق ربما سنين، الأرض توقفت عن التحرك والناس أيضاً، كلاهما فقط من كانا ينبضان بالحياة.

فكر محمود فى دخول السينما حتى لا يراهم الضابط معاً، و افقت كامليا وداخلها إحساس بأن في ظلام السينما ينتظرها هذا الوجه الغاضب واليد الخشنه لكنها لم تشاء ان تعلن ذلك .. ، كانت القاعة خالية تقريباً، بعض الوحيدين و العاشقين و كامليا ومحمود، تعانقا، قبّلها محمود بخفة وتحسست ذقنه لأول مرة بشفتيها، كانت يد محمود تسير كالتائه في حنايا جسد كامليا بينما حاولت الاخيرة أن تقترب أكثر من جسد محمود.. تقترب حد الإلتحام التام، أخذت تقبّل ملامحه بهدوء كأن لهم الزمان كله داخل هذا

المكان، وضعت أذنيها فوق صدره لتسمع دقات ذلك القلب الصغير الذى يفيض بالدفء، عادت تقبل جسده وتستنشق هذا العطر الذى يخرج من بين ثقوب الجلد، أرادت أن تحتفظ برائحته في أعمق مكان داخل جسدها لكن الوقت أجهض هذا الحلم..

عاد الضوء يغرق القاعة فرجع كل واحد إلى مكانه، حاولوا ضبط ملابسهم قبل الخروج، نظر إليه أحد العمال أثناء خروجهم وكان عجوز ذو باع طويل فى قاعات السينما والافلام التي تحدث داخل قاعات عرض الأفلام وقد لمح أثر الحب على محمود فسأله وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

_ أعجبك الفيلم يا كابتن .. ؟

تجاهل محمود السؤال رغم أنه يعلم أن الرجل لا يعرف شيء لكن في مثل تلك الحالات تشعر وكأن العالم كله يعرف عدد القبلات بينكم، وقف محمود قبل الخروج ينظر إلى كامليا التي فهمت ما قصد محمود لأنها فكرت في نفس الأمر، خرج محمود أولاً من الباب ثم خلفه كامليا، همس لها ان تحذر، وسار كل منهم في طريق، كأنهم غرباء ..

حدّث محمود نفسه وهو يسير فى شارع فؤاد منطلقاً من سينما أمير عن دور السلطة في بلادنا، ما الذي تمنع حدوثه الحب أم السرقة، أم أن الأمر ملتبس لديهم، يبدو أنهم يعتبرون من يسرق قلب أحدهم حباً يتساوى مع اولئك الذين يسرقون الأحلام من بين طيات نومنا المضطرب لاننا عاجزون عن إطعام ابنائنا لأن هناك من سرق أموال ضرائبنا وهرب وحرق المصانع ليخفي جرائمه فصار ألف ألف رب أسرة بلا عمل ..

لا أعلم إن كان عمل السلطة تغير في تلك الأيام؟ كل ما أعلمه جيداً أن الحب ليس جريمة ..

في نفس الوقت جلست كامليا داخل سيارة الأجرة شاردة الذهن عبر النافذة محدقة في البحر الممدد على طول الطريق لبيتها تفكر لماذا يفعل الضابط كل هذا؟ لم يطاردها في أحلامها و في حضن محمود .. وضعت كفها فوق انفاسها تشم العطر الذى حملته من جسد محمود، ثم اغلقت قبضتها و ضمتها إلى صدرها و ابتسمت.

12

حاولت صفية استغلال تلك السنة التي تنتحل صفة الشهر فى أن تعيد ترتيب البيت، تحاول أن تجعله بيت حق ليس مجرد شقة مفروشة أخرى، بعد ما حدث مع صفية منذ وصول خطاب الأب لم تعد تتحمل العيش في تلك الشقة القديمة فهي تحيطها بجبال من الذكريات، هنا جلس خالد يقرأ الخطاب وهنا كان السقوط الأخير للأم بعد أن تناولت كل الأدوية بالمنزل وأخذت تترنح سيراً حتى وصلت إلى منتصف الصالة وسقطت، في هذا الركن وقفت صفية تنظر لأمها التي تفترش الأرض بجسدها و سائل أبيض خرج من فمها لم تستوعب الأمر فى البداية كأنها تشاهد فيلم، لم تقدر أن تعيش فى مكان يسممها بالذكريات ..

دق هاتف صفية فأعادها من المنزل القديم إلى هنا ، جففت يدها في عباءتها المنزلية ثم أجابت وهي تمني النفس بعمل ينهي الأيام العجاف.

_ الوو ، مين .. ؟

كانت تلك المحاوله العشرين للأستاذ سعيد، يقوم بالاتصال برقم عشو ائي ويطلب شيء واحد لكن الإجابة دائماً مخيبه للآمال و صادمة سواء مع المعارف أو الغرباء، تردد قليلاً حين سمع صوت صفية التي تظهر فيه حدة لكنه استعذب صوتها رغم ذلك.

_ إسمي سعيد، لكني لست كذلك في الو اقع، هل يمكن ان نتحدث قليلاً .. لا أريد أن نتحدث في حوار ما فربما لا تريدي أن تحكي شيء عن نفسك لكن يمكن ان تسمعيني فقط؟

_ من الذي أخبر الناس أنى خلقت لأستمع إليهم؟، أبحث عن شخص آخر يستمعك.

_ لم أجد ، حتى أن البعض شتمني ، هل يمكن ان نلتقي؟

غاص الأستاذ سعيد فى مقعده وهو ينتظر إجابة صفية، تمنى أن توافق، تمنى أن تجلب تلك الدقائق المجانية شيء آخر غير الفراغ الذي أحاط به، تمنى أن يلتقي بصاحبة هذا الصوت الساحر، ليس ساحراً بالمعنى الانثوي فهو خشن قليلاً لكنه ليس بغليظ، يمكن تفريقه عن صوت الرجال لكنه يبقى مختلف عن اصوات النساء، شعر بالإثارة وهو يستعيد صوتها وتمنى ان تنطق بأي شيء الآن حتى يسمعه من جديد ..

مرت لحظات من الصمت والتفكير ومازالت صفية تفكر، يبدو الصوت غريب لا تستطيع أن تميز عمر صاحبه ولا تريد ان تبدو مهتمة فتسأله، الجلوس فى المنزل يخنقها هناك إيجار واجب الدفع بعد أسبوع، لم تجد كلمات الرفض تظهر فى تفكيرها فو افقت ..

كان الموعد مساءً على كورنيش البحر المواجه لحديقة الخالدين ..

13

جلس مروان على السلم ينتظر عودة كامليا يقرأ في رو اية "هكذا كانت الوحدة" كانت بطلة الرو اية "إيلينا" تسحره بقوتها وقدرتها على مواجهة كل شيء حولها، مذهلة هي الطريقة التي عالجت بها وحدتها كيف أنها كلفت شخص لير اقبها لتشعر أن هناك من يهتم و يلاحظ وجودها، يكتب لها عن نفسها، يخبرها كم كانت جميلة هذا الصباح وهي ترتدى معطف أزرق جعلها تبدو كالفراشة أو حين يسأل عن سبب تلك الهالات أسفل عينها لم يقدر أيضاً أن يخفي إعجابه الشديد بشعرها القصير، لكن رغم إعجاب مروان بذلك إلا أنه كتم في نفسه خوفه من أن يكون مكانها، يكون مر اقب يقصد، لم ينتبه مروان لصوت المصعد ولا إلى كامليا التي أخذت تنظر إليه طويلاً حتى ملت ذلك فخطفت الرو اية من يد مروان لينتفض الأخير و اقفاً:

_ استاذة كامليا

_ أتعرف منذ متى لم أراك يا مروان .. ؟

_ آآآآآآ.. منذ حفل عيد ميلادك .. هذا اليوم كان الثلاثاء ٥/١٥، كنتِ ترتدين هذا الفستان الأسود وشعرك كان يجتمع فوق راسك كالتاج، أتذكرين حين غلب النوم الأستاذ سعيد، النوم فى غرفة الصالون وبدأ فى الشخير فحملته الى غرفته وسط ضحكات الجميع؟، وكان هناك هذا الشاب الذى قبّل يدك بعد أن أطفئتم الشمع و طلب الجمبع منه ان يقبلك لكنك رفضتي وتقبل هو ذلك، أتذكر أيضاً ... هل هذا الشاب حبيبك؟

وقفت كامليا تر اقب هذا الوجه البريء الذي ينطق بما فاض به قلبه، يخبرها كم يحبها لكنه لا ينطقها، كانت كامليا تتأمل وجه مروان الذي تحتله ضحكة عريضة وعيناه التي تتلالأ بالفرح وهو يحكي عنها، مع كل تفصيلة

ينطق بها تتسع ضحكته أكثر وتلمع عينها كأن كل شيء يحدث أمامه الآن وليس مجرد ذكريات، هذا الحب الذي يتدفق من بين كلماته والغيرة التي دفعته لأن يكسر كل الحدود بينهم ويسألها عن محمود.

_ تبدو رو اية جيدة .. هل تقرأ كثيراً.

_ أحياناً

_ إذاً هل يمكن ان تساعدني في اختيار بعض الكتب؟

ظل مروان صامت ..

_ غداً صباحاً تخرج معي لنشتري ..

أخرجت كامليا المفتاح، فتحت الباب ودخلت بينما ظل في مكانه يتابعها..

ثم انتبه فجأة إلى ما قالته كامليا ..

_ غداً صباحاً.. ماذا؟؟

14

البرد يتسلل من بين ضلوع علي يقتل فيه دفء عمال المناجم، ويزيد من قسوة هذا المتجمد الذي يمسح حذائه، لمح علي رجل يجلس أمام محل فخم لوجبات الدجاج يدخن بقايا سيجارة عثر عليها تحت قدمه، لا يعلم علي لماذا تذكر أبيه ربما بسبب تلك الملامح التي توحي بالعجز رغم أنه ليس كذلك

حاول علي استرجاع ما يذكره عن أبيه، حاول أن يستعيد من ذاكرته دفء حضنه ليواجه به هذا البرد، بيد أن أبيه لم يفعل ذلك ابداً.

كان أبي من أولئك البشر الذين يولدون عجائز..

هذا السائل الذى يُخصّب البويضة يحمل معه ملامح من الوالدين ليس فقط ملامح الوجه بل ملامح القلب ايضاً، فنأتي إلى العالم بأطفال يحملون طعم السجائر بين أسنانهم اللبنيه والتجاعيد أسفل بشرتهم الناعمة، نجد الإنتحار عادة منتشرة في سن المراهقة أكثر من العادة السرية وحلم الزواج أهم وأكبر من تحقيق الذات..

سافر أبي كثيراً وبلا هدف لكن برغبة قوية في الهروب من هنا، أعتقد في وقت مضى أن تلك المدينة ملعونة، ولما عاد بعيون فارغة وروح قاسية إلتقى أمي و تزوجها حينها فقط تأكد من الأمر..

15

جلست حنان أمام تلك الأريكة ذات "السحارة الكبيرة" والتي تحتوي على الكثير من ذكريات الثراء، تخرج فستان أخضر مكشوف الكتفين و ذلك "البروش" ما زال معلق به جهة اليسار، وحقيبة اليد الصغيرة التي كانت مفضلة لديها، علبة المجوهرات الخشبية كانت تحمل داخلها في الماضي أشكالاً وألوان من الذهب أما الآن فتحمل اوراق قديمة عقد زواج وشهادات ميلاد وبعض الصور القديمة، كانت حنان مدمنة على تقليب الذكريات وتندم على ذلك حين يصيبها الحزن على ما مضى، فتغلق السحارة و تعيد ترتيب الأريكة وتجلس عليها تتابع كامل فى أنشطته اليومية أو تقرأ جريدة دون الاهتمام بما تحتويه من أخبار..

قام الأستاذ كامل بالاقتراب منها وعلي بملامح طفل على وشك ان يسأل أمه كيف جاء الى الدنيا:

_ اين انا يا حنان ؟

_ في بيتك يا حبيبي

_ وهل كنت يوم أحب هذا البيت؟، أم أن قوة أجبرتني على العيش فيه لأني أذكر تفاصيل بيت آخر أكثر فخامة من هذا؟.. وأكثر اتساعاً، أين الخطاب، يغتال صمتي دوي انفجارات وصرخات، عادل يبكي في غرفته سأنظر ما به ثم هدووء تام يتبعه ضجيج حفلة أرقص فيها مع امرأة غيرك، السادات يتحدث فى مجلس الشعب عن انتصاري في الحرب ثم تأتين أنتِ وتجذبيني خلفك حتى هذا البيت، .. لا أفهم شئ كنت أحفظ رقم هاتف منزل صديق لكني نسيته أو فقدت الترتيب الصحيح لها..

هل لدينا هاتف؟ أريد قهوة، أذكر ان لدينا بُن جيد، هل كنت احب القهوة؟؟

16

كانت الشمس قوية في هذا اليوم، الناس فى مداراتهم هائمون، انتظر مروان بعد الظهيرة لعلها تكون ساعة رحيمة به ولا تعلن وجوده لهؤلاء المتربصين فى كل مكان كالمخبرين، وقف أمام المراية طويلاً يحاول حث نفسه على الخروج ..

_ ليس لدينا طول اليوم يا مروان.

جاء صوت كامليا من خارج غرفته التي تقع خلف بيت السلم، ضاعف الخوف داخله، ماذا لو تعرض لها أحد كيف سأدافع عنها لو حدث لها مكروه خلال الطريق؟، ماذا لو التقينا أحد يعرفنا أو عيون تراقبني او قلوب تكرهني، ماذا لو ظهر الضابط الحاقد ومازال فى اعماقه غضب تجاهي ..

_ هل تشعر ببرد الشتاء وحدك؟

قالت كامليا ذلك وهي تتفحص تلك الملابس الثقيلة و الـ " آيس كاب " والـ " الاسكارف " التي يرتديها مروان حتى أنها بالكاد تعرف في أي اتجاه ينظر، ابتسم ولم يجبها بشيء مفيد رغم أن الأمر كان ملفت فعلاً، بعد أن غادروا المكروباص الذي استقلوه من "رأس التين" حتى "محطة الرمل" طلب منها السير المسافة الباقية عبر الشوارع الجانبية هروباً من الازدحام، كان مروان يسير بتوتر واضح ينظر حوله كثيراً، كان يشعر انه مراقب، حاولت كامليا التحدث عن أي شيء لكن إجابات مروان كانت قصيرة وكافية لتنهي الحوار تماماً ..

وصل الاثنين إلى شارع "النبي دانيال" و ابطئوا السير وكثرت توقفاتهم أمام أكشاك الكتب تضاعف التوتر لدى مروان، كانت نظرات الباعة تصيبه باللعثمة أثناء الكلام فيسأل نفسه هل يعرفون شئ عني، هل قرأوا هذا

العدد من الجريدة الذى ظهر فى النصف الاسفل من الصفحة الاولى أم أن نظراتهم لا تعني شئ، ظل يلتفت حوله وصوت داخله يصرخ بأن أحدهم تعرف عليه وأخبر الباقين وهم يتربصون به ..

_ ما رأيك فى تلك المجموعة

_ جيدة .. لنذهب ..

_ أنت ترتجف ..

_ أشعر بالتعب

_ ما الذي يؤلمك؟

_ صدقيني كل شيء.

١٧

كان يسير بخطوات سريعة متخبطة يتلفت حوله، يلمح أفواه تهمس لآذان وعيون تحدق فيه، يشعر بأقدام تتبعه، الجميع قدعرف سر "مروان عبدالعظيم"، توقفت كامليا فجأة، أرادت أن تفهم، أشار لها بيده أن الجميع ينظر إليه وأن هناك من يتبعه، نظرت كامليا حاولها فلم تجد شيء، الجميع في أعمالهم غارقين، حتى الشخص الذي قال مروان أنه يراقبه ليس إلا مجذوب عتيق ليس هناك من لا يعرفه فى الاسكندرية، وضعت يدها على كتفه ونظرت غلى عينيه التى يقفز الرعب من داخلها قالت :

- ليس هناك احد يامروان انت مرهق اكثر من اللازم.

نظر اليها بطريقة غير مفهومة كأنه يتهمها بالتوطؤ وهمس لها "انتِ معهم .. لذلك كنتى مصرة أن أخرج معك"، دفعها بيده لتفسح له المجال وأخذ يركض، حاولت كامليا أن تلحق به بكل طاقتها لكنه صار يركض كالمسوس وقد غرق في العرق والخوف..

الهروب، الركض و الاختباء، السير بجوار الحائط وداخله إن أردت مزيد من الأمان، شجاعة الجبناء، ليس اولئك الذين ولدوا جبناء فهؤلاء يموتون مبكراً، بل تلك الفئة التي زُرع الخوف داخلهم، استُهلكت كل طاقتهم فى الصراخ والبكاء طلباً للموت السريع، الذين أصيبوا بالغربه وهم في أحضان أحبتهم، داخلهم شتات عظيم عن أنفسهم ، كلما اراد احدهم وضع نهاية لذلك وجد الخوف ينمو داخله، يمنعه، ليس الخوف من الموت بل من أن يُعاقب.

والموت للشجعان، الانتحار للشجعان، الذين واجهوا الحياة بكل جسارة وقد حان الوقت لتحدٍ جديد.

اما الجبناء بالفطرة فيخافون التفكير فيه هم لا ينطقون اسمه مع انفسهم حتى.

18

حاول سعيد أن يسير بخطوات ثابتة وسريعة رغم أن هناك دقائق كافية للوصول، يحاول أن يبدوا أفضل صحة وأن يقوُم انحناء ظهره، ارتدى البدلة الكحلي التي يحتفظ بها للأوقات الهامة، كان يبدو في أفضل حالاته، عيناه تحملان سعادة لم يعرفها إلا فى اليوم الذى حمل طفلته كامليا بين يديه، لم تكن تشبه أحد، كانت متفردة في جمالها وطفولتها، ذات يوم سألته عن عمله، حاول تبسيط الأمر لها وأخبرها انه يُصلح بين الاشخاص المتخاصمين فجاء ردها صادم و قاسي..

_ اذا لما لم تصلح بينك و بين امي لتعود و تعيش معنا؟

يا طفلتي بماذا أخبرك عن أمك، كان اسمها حنان، وليس لنا أى نصيب من اسمائنا كما يعتقد الناس، بماذا نفع اسم أمك حين هجرتك و انتِ في شهور رضاعك الأولى؟ لم يكن عامك الأول قد مر إلا و انتِ تبكين بمفردك في الليل و أنا لا حول لي ولا خبرة بالأطفال، كان بكائك يا حبيبتي غريب كأنك تصرخين في شخص لكي يرجع لكنه لم يفعل، وكنت أنا وحدي، أناضل من أجل أن أبدو كرجل لم يفزعه صوت رحيل القطار وهو يحمل من يحب، إما التحطم أو الصمود ..

و أنا الذي سقطت بين يدك يا طفلتي أبكي كالرجال .. حاولت أن أصمد.

و أدعو .. اللهم قوة لنستمر.

تنفس سعيد بعمق وحاول أن يتذكر أمر اللقاء وصاحبة الصوت، أخذ يتخيل وجهها، فكر أن يشتري ورد، وجد سيدة عجوز تبيع فاشترى وردة حمراء لها رائحة عطر صناعي لكنه لطيف..

حاولت صفية التهرب لكن شيء أيقظها قبل الموعد بوقت كاف، ارتدت ثياب عادية وجمعت شعرها فوق رأسها بمشبك من الخزف وخرجت من بيتها، كانت جميلة وبسيطة كالقمر فكانت العيون تصلي إليها كلما عبرت امام أحد ..

كانت صفية تسير ببطء تحاول أن لا تصل، لا تعلم سبب ترددها فى الذهاب لهذا اللقاء رغم حاجتها للنقود ..

كان البرد بسيط آنذاك، جعل الجميع خارج منازلهم،فامتلأ الساحل الممتد بالعشاق والاصدقاء والبائعين والباحثين عن المرح والعلاقات العابرة، وصل الأستاذ سعيد في الموعد وكذلك صفية، وقف كلاهما ينظر إلى البحر منتظراً ثم جاءت خاطرة اليه أن لا أحد يعرف ملامح الآخر..

أخذ سعيد ينظر حوله كالصغير الذي لا يعرف عنوان البيت، بينما أخذت صفية تبحث عن شخص يبدو سعيد، الناس يزداد عددهم بشكل يؤكد وجود مؤامرة ضد هذا اللقاء، اقتنصت عين صفية شخص تائه، وتعرف سعيد على ملامح صفية وهي تبحث عنه، بدأ الاثنين بالاقتراب والكون يتلاشى من حولهم، وقفت أمامه تبتسم وهي تخفي داخلها خيبتها بأنها ذهبت بقدمها إلى إحدى لعنات هذا الشهر، بينما سعيد كان فرحاً باللقاء، تفاهموا بالصمت على الذهاب إلى مكان يصلح للجلوس، أمسك بيدها ولم تمانع.

مشى سعيد يمسك بيد صفية بسعادة طفل تصطحبه أمه لمدينة الألعاب.

19

_ لا أذكر يوم عرسنا، أو أذكره لكن دون أن أتعرف على نفسي هناك، لم أحب شكل البن، صنعت شاي، كم ملعقة سكر كنت أضع فيه؟، اليوم جائني صديق قديم في الحلم أو ربما جاء حقاً لا أعلم .. لا يهم ، أخبرني أنه غاضب مني و .. و ... أخبرني السبب لكني نسيت، كانت ذراعه مقطوعة، هل أخبرتك يوماً عن أول امرأة عرفتها في حياتي؟ ..

_ لم تخبرني شيء، أذكر أنى سمعتك تهذى بإسم حين أصابتك الحمى لكني لم اهتم لاسألك عنه، يبدو أن الاسم كان هدى.

_ اجل، أذكر تفاصيل الفترة التى قضيناها معاً وأنها تزوجت غيري، أنا لم أقبّلها أو حتى لمست أطراف أناملها بالخطأ، حين كنا نجلس كانت تترك مسافة متر بيننا، حين ذهبت للتجنيد لم تودعني، لكني عرفت في إحدى إجازاتي بأنها تزوجت، لكني لا أتذكر إن كنت حزنت لذلك أم لا ؟

_ هل تذكر كيف تزوجنا يا كامل ؟

_ أعلم انك تتألمين لأنني أذكر امرأة أخرى و لا أتذكر شيء عنك، لكني لا أعلم سبب ذلك منذ الحرب وذاكرتي تذبل وتتهاوى كأوراق الخريف، ثم ضياع كل ما أملك بعد أن تزوجنا ببضع سنين كل هذا جعل عقلي يغرق في الفوضى.. الآن أتحدث وكأنى اذكر كل شيء ثم أنسى أين وضعت نظارتي .. أنا لا أرى بدونها .. يجب أن أجدها ..

يتحرك كامل في الشقة بحثاً عن نظارته التي لم يشتريها من الأساس ..

20

وصلت كامليا الى "محطة الرمل" وقفت لدقائق أمام مطعم تريننانون تنتظر محمود الذي سرعان ما جاء بشوق فعانقها دون تفكير في عو اقب ذلك، هذا الحضن الذي يأتي دون حديث أو ترتيب، يدفعنا إليه حبنا المصلوب على بو ابة الانتظار والتائه فى المسافات الطويلة التى تفصل بيننا، هذا الحضن نعمة من الله..

جلست كامليا تستريح بجوار محمود على أحد إستراحات محطة الترام، تحاول أن تنسي ما حدث مع مروان، لم تحك لحبيبها شيء، فالأمر غريب ولا تفهم ما الذي أصاب مروان و دفعه لذلك وهي لا تحب أن تحكي شئ لا تعرف تفاصيله ثم أن هذا اللقاء لا يتكرر كثيراً لن أضيعه فى الحديث عن مروان، كان الليل يغازلهم بصمت وصوت البحر..

_ الليل عاشق لذلك هو ملاذ لمن هم مثلنا

_ ماذا تقصد بـ مثلنا

_ أقصد العشاق، راغبي القبل المسروقة، الظمآنين للعناق والادغام داخل بعضهم.

_ فهمت اذا لماذا اشعر بالحنين إليك فى الليل ، ولماذا يقبلني أبي

_ وامك ؟

_ايضاً أمي أشتاق إليها فى الليل

كح .. كح .. كح ..

حاولت كامليا التنفس لتنتهى نوبة السعال، ركض محمود لإحضار ماء لصغيرته، وبعد قليل عاد الهدوء وضمها فى صدره لتطمئن .. فسكن كل شيء حتى موج البحر انحسر..

همس لها ..

_ إن الموت الآن أمنيتي الوحيدة، حتى ابعث على ما أموت عليه

_ أحب حين تخبرني أنى شيء مهم بالنسبة إليك، فخارج حدودك أنا لا شيء.

تمسكت كامليا بقوة، غرست أصابعها في ظهره وأغمضت عينها، تمنت أن كل الأشياء الصعبة فى الحياة تنتهى بمثل هذا الحضن فيمنحنا القوة لنستمر.. تذكرت دعوة ابيها التى كان يرددها كل صباح وهو خارج الى عمله ..

_ اللهم قوة لنستمر..

انتزع الضابط الحاقد محمود من كامليا، أمسكه من خصره والفزع على وجه كلاهما ،محمود الذى اخذ يقاوم كالثوار ويسأل عن سبب تلك القبضه الأمنية الغاشمة وهو مناضل سلمي ..

_ ألم أحذرك من قبل .. وقلت لا تلمسها ؟

_ نعتذر يا سيدى ، لن نكررها مرة أخرى

_ فعلاً لن تتكرر ..

صرخ الضابط فى فى رجاله " خذووووهم " ولم يحدد مكان ..

21

_ الدكتوراه الثالثة فى القانون الدولي و الر ابعة في القانون الدستوري

_ .....

_ في أحد القضايا حاول محامي المتهم ان يثبت أن سبب الجريمة كان دفاع عن شرفه لانه اكتشف ان زوجته على علاقة برجل آخر، لكن الحقيقة انه قتل زوجته لأنها اكتشفت خيانته ثم قتل عشيقته ايضاً ..

_ .....

_ وفى قضية اخرى كان المتهم وزير لكنى لم اخشي شئ وسجنته

_ .....

_ الحقيقة أن كل القضايا التي عملت بها كانت صعبة وخطيرة، فمثلاً إحدى القضايا كانت عن استيراد سلع غذائية فاسده و كنت احد الذين تناولوا منها ، لكن هذا لم يدفعنى للحكم ظلم على المتهم و....

_ اليس عندك مواضيع اخرى غير القضايا تتحدث عنها

_ .....

شعر الاستاذ بالوحده كآخر يوم عانق فيه زوجته، وحيد ككل الأشياء الجميلة فى الحياة ..

21

دخل مروان إلى غرفته وبالكاد كان قادراً على التقاط انفاسه، أغلق الباب دون أن يشعل الضوء، جلس على الارض ووضع رأسه بين ركبتيه واحاطهما بذراعيه، أغمض عينيه، سمع أصوات كثيرة متداخلة تصرخ واحدهم ينادي باسمه، ينتفض مروان و اقفاً قائلاً "افندم" يعيد قراءة حيثيات قضيته، يصرخ مروان "لم افعل .. لم افعل ، كنت عائد من الجامعة وقفت أشاهد لم اشارك .. اقسم أنني لم أشارك، ظل يرددها وصوت عسكري خشن يصرخ فيه ان يصمت، همسات الحاضرين حول مصيره ، دقات من مطرقة القاضي تعيد الصمت للقاعه ، رجاء الدفاع بالر أفه بحداثة سن موكله ، وكيل النيابي الذى يطالب باقصى عقوبة على المتهم ،قاضى ضئيل الحجم يبدو متمرساً ويجيد تنفيذ الاوامر، اعلن بصوت هاديء عشر سنوات مع الشغل لكل من فى القفص، رفُعت الجلسة، صرخات أمه التي لم يسمعها بعد اليوم، كل الأصوات تناسلت في عقله لم يعد قادر على التحمل فسقط ارضاً وضع يده على أذنيه ليخفف من قوة الصوت ثم فتح عينه فوجد شخص يجلس على السرير ينظر إليه يحمل ابتسامة منتصر.. إبتسامة صفراء، لم يستوضح مروان من هو، زحف على أربع بإتجاه هذا الوجه..

_ مضى وقت طويل يا مروان ..

هذا الصوت، طريقة الحديث التى تشعرك بانك قبض عليك بالجُرم المشهود، أعرف هذا الوجه الذى يملئه الحقد، الضابط الذي كان سبب كل شيء، خطربباله ان ينقض على رقبته يعتصرها فى قبضته

قفز باتجاه الضابط كأن به طيف من جنون وأمسك الهواء، نظر في أرجاء الغرفة بسرعة بحثاً عن الضابط الذي اختفى، عادت الأصوات تغزو

رأس مروان، ظل يحاول منعها لكنه فشل فهي تتملكه أكثر كلما حاول التخلص منها، خرج من الغرفة وضعاً يده على أذنيه وبدأ يركض دون أن يهتم بالأشخاص الذين اصطدم بهم ولا بالسيارات التي بالكاد توقفت ولم تصدمه، حتى أنه لم ينتبه إلى هؤلاء الرجال الذين يتبعونه منذ عشر دقائق لانه صدم طفل احدهم اوقعه ارضاً فاحدث ذلك قطع في رأسه لذلك يبدو انهم عازمون على الإنتقام ..

تمكن أحد الغاضبين من اللحاق بمروان وسدد له لكمة قوية أوقعته أرضاً رغم ضخامته فقد أنهكه الركض، وصل باقي الرجال وتجمعوا حول مروان الذي حاول أن يقف، لمح الضابط الحاقد و اقفاً بتلك الابتسامة التي تصيبه بالرعب، نظر إليه مروان وعيناه تفيض بالأوجاع ..

ظل مروان ينظر إلى الضابط ويتوسل إليه أن يرحمه، يقسم له أن يسير داخل الحائط ولن يفعل شيء، وعده بأن يتوقف عن تلك اللعبة التي يمارسها من أعلى العمارة، وعده أيضاً أنه سيكون هدف سهل لكل من ير اقبه و لن يختبيء منهم، لكن أرجوك ارحمني يا سيدي الضابط، إرحمني ..

كان الغاضبون في دهشة فليس بينهم ضابط ولو سابق حتى، ليس حولهم أحد ينظر إلى مروان، هذا الشخص مريض، قالها رجل يبدو أن غضبه انحصر، و أضاف أتركوه هنا يكفي ما حصل عليه، نطق آخر يسكن ملامحه غضب فطري هذا الشخص خطر يجب ان يتعلم درس ..

ولكي يتجنبوا خطورته انهالوا عليه بالضرب والركلات حتى رُسمت ملامحه على الرصيف بالدم.

22

الظلام تام وكذلك الصمت، ظهر عود الثقاب لثوان ثم اختفى و بقيت مقدمة السيجارة مشتعلة، كان محمود يجلس عارياً فوق أرض غارقة في المياه، شعر بأن هناك عيون تنظر إليه بغضب، عقولهم تتمنى أن تسحق جمجمته بأحذيتهم الغليظة، صوت صنبور المياه الذى تُرك عن عمد لينزف نقطة خلف الأخرى تصيبه بالجنون، الدخان الذى يُنفخ فى وجهه يُضاعف خوفه، حاول أن يفكر فى سبب كل هذا، هو لم يفعل شيء، سيدافع عن كامليا ولو ضحى بنفسه، سيعتذر إن لزم الأمر، بالتأكيد لن يصل الأمر إلى سجن فنحن لم نفعل شيء خطأ في النهاية، صوت سقوط عقب السيجارة على الأرض المبللة يمكن أن تسمعه، صوت احتكاك أقدام كرسي بالارض كأن أحد يسحبه للأمام، أنفاس تحمل بقايا الدخان تقترب عن يساره فيحاول محمود الابتعاد لكن الحائط متواطيء معهم فيمنع ذلك، إقترب الضابط الحاقدمن أذن محمود وهمس له" هاااا " .. بقي محمود صامتاً:

_ إذا لم تعترف انت ستخبرنا عصفورتك الصغيرة بكل شيء.

_ ماذا ..؟ هل كامليا هنا .. ؟ ماذا تريدون منا ؟

_ قل لنا الحقيقة لنمنحكم الحرية ، ما طبيعة علاقتك بـكامليا

_ نحن أصدقاء أولاً .. بنحب بعض

_ فقط ... ؟

_ ليس فقط يا سيدي بالتأكيد، أعترف بأني استكشفت تضاريس جسدها، وطني وكان لا بد أن أعرف دروبه كلها، سكنت الكهوف وشربت من العيون و تذوقت كل الثمار ، أقدر أن أميز عطرها من بين كل النساء، بل أنى أعرف رائحة جسدها فى مختلف حالاتها المزاجية، اطيبهم حين تكون

حزينة، والغضب أكثرهم إثارة وجموح، الحب كان دائماً دليلي في السفر لم نفعل شيء خطأ..

_ قال محمود .. نعم فقط اقسم لك بالله .

23

_ احكي لي ياحنان عن نفسك قبل ان نتزوج، لااذكر لقائنا الأول، أين ابني؟ لما لا أراه يلعب بالقطار الذى احضرته له منذ يومين ..

_ عادل سافر الى الخارج من سنين

_هل سيتأخر، الطقس بارد فى الخارج، اخاف ان يصاب بالحمى، كما أنى أريد أن يوصل خطاب إلى منزل أحد اصدقائي القدامى ..

_ هو فعل ذلك قبل ان يسافر

_ أنا لا أذكر العنوان، لا أذكر ملامح صديقي

_ أنت أرسلت الخطاب بالفعل ياكامل..

_ حين مات هذاالصديق وكان اسمه.... لا أتذكر، سقطت قذيفة بالقرب من موقعنا، أذكر جيداً أنها أصابتني بالصمم لدقائق، وأصابته بشظية في صدره، لم تمهله إلا دقائق أعطاني فيها الخطاب وذكر لي العنوان، حاولت ان أخبره أنى لا أسمعه جيداً لكنه لم ينتظر..

_ .....

_ لماذا لم انسى ذلك ايضاً

دخلت حنان إلى المطبخ لتهرب من كامل، كانت رؤيته تصيبها بالحزن، نوع من الحزن الذى يصيبك حين تظن أنك ربحت الجائزة الكبرى، ثم تجدها شهادة ورقية تقديراً لمجهودك، لم تكن حنان من الشخصيات التى ترضى بكلمة شكراً، تذكرت كيف كان كامل فيما مضى، هذا الشاب الوسيم المكلل بالثراء، تمتع بذكاء كبير جعله يحقق كل شيء في سن صغير، حقق المجد و توج ذلك بالحصول عليها، أين ضاع كل ذلك الآن، لم تندم على تضحيتها بطفلتها من زوجها الأول، بل أخذت تفكر في مستقبلها.

24

مرت بضع ساعات وكامليا مازلت فى تلك الغرفة، ليست كبيرة ولا مظلمة، ضوء أصفر خافت يتدلى من سقف الغرفة، كانت تجلس فى الركن المواجه للباب تترقب، تفزعها أصوات الأقدام التي تمر من أمام الباب وصوت فتح الغرف المجاورة، بعض الصرخات تظهر من حين إلى آخر ربما اعتقدت أن إحداهم تخص محمود لكنها تمنت ان تكون مخطئة، وقف الضابط ينظر من نافذ الباب بتلك الابتسامة على وجهه الأصفر، فتح الباب، دخل وخلفه بعض الرجال لم تعرف عددهم، حاولت ان تختفى من عيونهم داخل الجدار الإسمنتي، كانت كامليا ترتدي ملابسها فتمسكت بها، جلس الضابط بجوارها، إقترب بأنفه يشم تلك الرائحة التى تعلق باليد كل صباح شتوي، لكنه احتار بين البرتقال و اللارينج ..

كاان لدى الضابط ممارسات غريبة، كأن يتذوق الحلوى بأصبعه، اصوات يحبها، كصوت تمزق الملابس، ولم تقدر كامليا أن تفلت من يد الرجال، جلس الضابط بين قدميها، مزق هذا التيشيرت الازرق، استمتع بتطاير أزرار القميص واحد تلو الآخر، شق حمالة الصدر نصفين فاهتز ثديها، لمعت عيون الرجال وصار مائهم يغلى داخلهم، مزق الـ " الجيب " من الأسفل وأخذ يصعد بشكل مستقيم، كانو ستة ربما وكامليا تناضل من أجل أن تسترجسدها الذى تم تجريفه.

كان الضابط أول المتقدمين، غاص باصبعه فى جسد الحلوة ليتذوقها، أحب جسد كامليا، كان يصفعها فوق ظهرها العاري لتصرخ فتزداد متعته، عرف كل الطعوم التى تمنى محمود ان يتذوقها، همس في كامليا بأن حبيبها محظوظ، تناوب بعد الضابط كل الرجال بالترتيب حسب رتبتهم الوظيفية، ومع شراسة المواجهة وضعفها توقفت كامليا عن النضال ككل ثوار العالم ..

25

تدق عقارب الساعة دون أن تبرح مكانها، للحظة تكون بمفردك على الأرض، سؤالاً واحداً، إجابات لا تحصى، تفاصيل لا نهائية التفاصيل، عيون غائرة في محجرها كأنها تغرق، وجوه شاحبة كالطحين، من أين لك أيها الإنسان التافه بتلك القدرة على احتمال الخذلان، مراراً و تكراراً، من أكثر الأشياء والأشخاص قرباً إلى روحك، لكنك تعود صلباً أو تحاول أن تبدو كذلك ..

زوجته خذلته بالرحيل، القانون الذي خدمه طول حياته، خذله مرتين

ومازال سعيد يخفى كل تلك الأعراض و يحاول أن يبدو سعيد ..

أخذ يرتشف من فنجان قهوته ويده ترتعش، كان المقهى الذى اختاره عتيق وجميل، ليس لأن كل شيء عتيق يكون جميلاً، بل لأن المجتمع كان يتمثل داخله بكل طبقاته وفئاته العمرية و أيدلوجياته المختلفة "مقهى الكريستال" كانت صفية تتأمل المكان بشيء من الإعجاب ، تنتظر أن يجيبها الأستاذ سعيد بشيء غير القانون، شيء عاطفي ربما رغم أنها لم تكن تميل إلى ذلك فى العادة ..

فكر سعيد في أشياء كثيرة يمكن أن يتحدث عنها، كإبنته كامليا، الصدفة التي جمتعهم معاً، جارته التى كانت راودته عن نفسها من ثلاثين عام، سكت لثوان لم يعرف بعدها كيف هرب الكلام الذى لا يفترض أن يُحكي ..

_ فى اخر لقاء بيننا قبل أن ترحل، فى منزلنا ، كانت تجمع أشيائها ، بعض الأوراق الشخصيه فقط، سألتها أن تأخذ صورة لـ كامليا لكنها رفضت لم

تشاء تذكار مني، أى تذكار، تزوجت شاب فى طريق الثراء، ليشبع كل شهواتها الجامحة، كان الذي أصدر حكماً بالطلاق دون سبب منطقي، رجل قانون، أخذ رشوة أم لتشويه سمعتي، هو الانتقام فى النهاية.

_ هل تشتاق إليها .. ؟

_بالطبع لا

كح .. كح .. كح

_ إشرب بعض الماء ، هل أنت مريض؟

شرب الماء وهو يبعدعيناه عنها، بالتاكيد لن يخبرها انها نوبة سعال الكذب.

_ إحكي لي عن نفسك؟

_ لن تجد شيء مثيرلدي

_ هحاول ..

لم تتحدث، أطبقت شفاهها فوق بعض بقوة حتى لا يهرب الكلام منها، هناك حديث لا جدوى من أن يحكى، لن تعود أمها من الموت، أخيها الذي "ذهب مع الريح"، فوبيا الخطابات، الرو ائح التي تجمعها من أجساد الرجال، وسير العائدين من الحروب، كونها عاهرة، هذا الشهر اللعين، أبيها الذي تشتاق اليه وتكرهه بنفس القدر..

يكون الإنسان عليل ومظلم بقدر ما يحمله من أشياء لا تُحكى ..

لم تشاء أن تجرح هذا الكهل، الذي أفضى إليها بكل شيء، أفضى إلى غريب لن يراه من جديد كعادة مدينتى .. كعادة البرق.

طبعت قبلة فوق الجبين ورحلت، تابع سعيد خروجها مبتسماً

كقبلة الأم يوم أن تأتي للحياة .. شعرسعيد ان تلك القبلة هي الأخيرة.

26

حين استعاد محمود الوعي وجد نفسه ملقى على أحد الأرصفة، وجهه يحمل آثار قبضاتهم، يرتدي ملابس لا تناسبه.. الشوارع خالية، تحرك مستنداً على الحائط يبحث عن ملامح أى شخص يعرفه أو بيت، يريد ولو ظل شجرة يختبيء فيه، سمع صوت بكاء يختنق قادم من مدخل بيت قديم، شعر بأن هذا الصوت لشخص يعرفه اقترب بحذر، نظر من شق عيناه التي ما زالت تبصر..

_ كامليا

سقط جوارها، ينظر إليها وهي تبكى، تفوح منها رائحة غريبة تشبه خليط من المني والعرق، كيف؟، نظر إلى ملابسها التي تبدلت، هناك دماء جافة قادمة من مكان مرتفع استقرت عند وجه القدم، لا تحكي لي ما حدث، واكذبي أرجوكي، أخبريني أنك بخير وأن هذه الدماء تعود لدورتك الشهرية، سأصدق كل ما تقولين، لن أناقشك في شيء، سأحاول أن اطمئنك، نظرت له كامليا وهي متأكدة أن محمود عرف كل شيء بمفرده، لن تحكى شيء، لن تصرخ، قد تبكي لكن فى البيت بمفردها، أرجوك لا تسأل يا محمود فلا أعرف بماذا اخبرك وكل ما أذكره فعل واحد مكرر..

كانوا عشرة، روائحهم متشابهة كالدواب، إفترشوا جسدي تحتهم، حريراً يلامس خشونة أجسادهم، كانت صرخاتي تزيد متعتهم، إجتاحوا كل سنتيمتر في جسدي، كان الضابط في البداية، عيناه، أصابعه، أنفاسه، أسنانه، إستخدم كل شيء ليتلذذ، وترك ما تبقى للرجال، والرجال لم يتبقى منهم شيء .. أي شيء

لم يبقى لك شيء يا حبيبي

كل الاشياء التى لا نقوى ان نحكيها تقتل داخلنا شيء ما، لا ندرك خطورة الأمر إلا حين نتحول إلى جبال من الثلج لا يتحمل أحد قربها ..

حاول أن يعانقها لكنه تذكر وجه الضابط، فعاد يستند بظهره إلى الحائط وبكى ..

بعد ساعة تقريباً، مازالت بقاياهم في أماكنها، كلاهما ضائع في متاهته، تحرك محمود ليجد سيارة أجرة تعيدهم للبيت، كل السيارات تهرب حين ترى هيئته، عاد إلى كامليا وقد هُزم من جديد، قررو السير قليلاً ، الليل يقترب من المنتصف، وقفت سيارة داخلها رجل عجوز، ضئيل الحجم، يغرق في كرسي القيادة، نظر إليهم كأنه يعرف ما حدث، يعرف أن لا أحد سيتوقف لهم، أمرهم أن يدخلوا السيارة.

جلس العصفورين المكسورين في الخلف، إنطلق دون ان يسأل، طاف بهم شوارع المدينة، كانت كامليا تضع رأسها فوق زجاج النافذة، تنظر للخارج دون ان ترى شيء، تراجع محمود للخلف، ينظر إلى كامليا وهو يتمنى أن يمسك يدها على الأقل لكنه لم يمتلك الشجاعة، كأنه يخشى أن تُأخذ مرة أخرى من بين يديه، ما حدث كان مؤلماً و قاسياً لكن الأشد قسوة هو أنهم زرعوا الخوف بداخلهم، الخوف من الألم .. الألم بكل اشكاله.

الخوف من الألم هو ما يجعل الألم حقيقي ..

27

جلس فى سيارة الاجرة التى تحركت لتوها من أمام المطار، لا يحمل سوى حقيبة صغيرة، أخبر السائق عن وجهته ثم نظر من النافذة .. نظر بعيداً،لم ينجرف مع ثرثرة السائق وأسئلته عن الدولة التي أتى منها ولا عن مدى تغير المدينه وعن ارتفاع الأسعار وضياع الأخلاق لدى الأجيال الجديدة، كأنه شريط مسجل لا يتوقف حتى اذا لم يرغب أحد في الاستماع، خالد الذى ضل الطريق بين دروب الذكريات التي أصبحت اكثر وعورة منذ وصوله إلى هنا، ذكريات إنهار أمام عنفوانها الجدار العازل الذي حاول خالد تشييده خلال تلك السنين التى قضاها فى الخارج ..

_ متى سافرت يا أستاذ

لم يرد .. هو نفسه لا يملك الإجابة عن هذا السؤال، حينها كان فاقد للزمن، ساقط من السماء، يرى الناس تركض بينما هو يحبو، لم يفكر سوى في الهروب، الخلاص من تلك المدينة الملعونة بكل تفاصيلها، حمل حقيبته وسافر الى بلد لا تطلب أوارق و منها أخذ يتنقل كثيراً ولم يستقر في أى بلد، كان يشعر دائماً أن هناك شبح يطارده، شبح داخل خطاب مغلق

لم يربح شيء من الغربة إلا مزيد من التشتت، لا شيء في الغربة سوى الضياع، في كل مكان رحل إليه كان يحاول الموت، كان يرغب بشدة فى أن يُنسى، فلان مر من هنا لكنه لم يترك أثر، لكنه دائما ما كان يتحول إلى قط مُلقى في العراء في ليلة شتاء.. ضعيف جداً و خائف وممزق كخريطة الوطن العربي ..

كيف لأحد أن يكره مدينته بهذا القدر؟، كيف لنا أن نكره الطرقات والأماكن، نكره حتى الأرصفة والحافلات، كل التفاصيل في مدينتي مرتبطة بشخص وهذا أسوأ ما قد يصيب الأماكن التي نحبها، الأماكن تفسدها الذكريات، والذكريات تنضج بالرحيل، وحين تعود تحصد ثمار الذكريات وفساد الأمكنة .. بأن تكره مدينتك.

عاد خالد إلى هنا، فقد دفء عمال المناجم لذا شعر بالبرد يعانق عظامه فأغلق النافذة .. وعيناه.

28

لم يكن الأستاذ سعيد فى المنزل حين عادت، ولا مروان يجلس على الدرج ينتظرها ..

جلست كامليا على سريرها، وحيدة كآخر دقات قلب، اغتسلت طويلاً حتى أصبحت بشرتها كرغيف خبز أغرقه الماء، أفرغت زجاجة عطر كاملة فوق جسدها لتزيل تلك الرائحة التى تحتلها.. لكنها لم تنجح، أشعلت كل أضواء المنزل والتليفزيون، حتى لا ترى وجوههم أو تسمع أصواتهم فى الظلام، لأول مرة تحتاج لأمها، تشعر أنها لو كانت موجودة لهان الأمر عليها كثيراً .. كم أشتاق إليك يا أمي ..

حاولت أن تنام، تكورت داخل نفسها

أخذت تبكي بقوة.. كأشد أيام الشتاء مطروالتي لم تُغرق إلا كامليا..

كلما أغلقت عينها، تظهر وجوههم في الظلام، أخذت تفكر في محمود لكنه كان يهرب من افكارها، يختبئ فى زحام الذكريات القديمة حتى لا تعثر عليه، تعلم أنه يشعر بالعجز لأنه لم يقدر أن يحميها، كلنا عاجزون يا محمود، كلنا يُعتدى علينا كل لحظة، بكل الأشكال، فإن أردت أن تعرف حال مجتمع تفقد حالة أفراده الجنسية وستفهم كل شيء، لا تشعر بالعار يا محمود فليس بيننا محصن من الإعتداء..

29

طرق محمود الباب و انتظر، فتحت حنان الباب، نظرت إليه وجذبته إلى الداخل، كان صلباً إلى أن عانقته فانهاربين يديها..

حكى لها أنهم اعتدوا عليه هو، كانوا خمسة عشر.. رائحتهم كالسمك المتعفن، أياديهم خشنة و قاسية، شهوتهم تقودهم أفضل من قائدهم، حكى لها أنه فقد عذرية أفكاره وأحلامه تحت بطش أظافرهم، غسلت له جسده كطفل فى ليلة العيد مراراً، وبعد كل مرة تسأله هل مازال يشم رائحتهم، يبكي، فتبدأ من جديد، طهرت كامل جسده بشفتيها،ضمته وهما عاريان، أرادت أن تعلق رائحتها به، وضعته في السرير وظلت تهدهده وتغني له حتى راح فى النوم..

وضعت فوق جسدها الروب، وخرجت من الباب بهدوء حتى لا تفزعه، كانت تتألم لما أصابه، وما يمكن ان يصيبها، خشيت أن يتغير محمود ويبتعد عنها، لم يكن بيدها سوى أن تبقيه هنا، تدخله كل يوم إلى معبدها صباحاً ومساءً ، تجعله يتعبد كأنه آخريوم له فى الحياة..

تقدم سعيد إليها يسألها عن اسم صاحب الخطاب..

_ هل كان اسم صديقي صالح سليم أم صلاح عبد الحليم

30

حين استفاق مروان وجد نفسه فى غرفة صغيرة تبدو من محتوياتها مخزن لمقهى، لا يدري كيف جاء إلى هنا، حاول أن يتحرك لكن جسده كان يتألم بشدة ولم يساعده على ذلك، إعتدل في جلسته، تسرب إلى أذنه صوت يغني بمهارة يتخللها ألم خفي، يستطيع كل من يتألم أن يشعر به، نغمات العود وصلت إلى قلبه واضحة جعلته يشعر بسلام في داخله، استرق النظر إلى الخارج، وجد القهوة تمتليء بالرواد يتجمعون حول مطرب لم يتبين ملامح وجهه لكن رأسه كساها الشعر الأبيض، ولا نغفل أطلال السنين التى يتغنى بها، أطلال السنين التي أنجبت وجع الكلمات التى يرددها.

جلس الجميع ينصتون إلى الغناء، حدَث مروان نفسه بأن هؤلاء الأشخاص مندمجين مع الغناء ولن ينتبهوا لو جلس فى الخلف، تحرك بهدوء إلى دورة المياه ضبط هندامه قدر المستطاع وغسل وجهه وخرج إلى المقهى وجلس في آخر صفوف المنصتين، حاول أن يتجاوز هذه الخاطرة التي أخبرته بأن هذا المقهى يحتوى على الكثير من كبار السن وهؤلاء يقرأون الجرائد كل يوم، ربما يكون أحدهم ضابط سابق، مناضل، ثائر.

_ ليس عندك شيء تخسره يا مروان.

هكذا أقنع صوت ما مروان، صوت تلقى كل الضربات والشتائم و أيام السجن على عاتقه ..

حاول مروان الجلوس بشكل طبيعي رغم آثار الضرب الواضحة عليه، رددالكلمات خلف المطرب بحماس شديد فاخذ صوته الخشن يظهر من بين جميع المرددين تدريجياً، بدأت العيون تلتفت إليه وتوقف الجميع عن الغناء استمر مروان يغني بحماس شديد بينما الجميع صامتون فلم يبقى فى المكان

إلا صوته، وقف أمامه رجل يبدو من تلك الطبقة الارستقراطية القديمة التي كانت تملك عشرات من الخدم وشغلوا المناصب العليا حتى بعد أن مضى هذا الزمن تمسكوا به في حديثهم و ملابسهم وطريقة حياتهم ..

_ من انت؟

_ مروان و..

_ لايهمني .. ماذا تفعل هنا .

_ شعرت بالتعب فدخلت لأستريح

_ أور اقك

_ اااا .. يبدو أنى نسيتها فى البيت

حاول السيد الحاقد أن يتذكر وجه مروان لكنه فشل لكنه ارتاب فى أمره، لم تعجبه هيئته، آثار اللكمات واضحة، آثار الدماء الموجودة على ملابسه، إعتقد أن مروان قتل أحدهم، أو حاول أن يعتدى على فتاة وحين قاومته انهال عليها بالضرب، عنياه تهربان من المواجهة، تهربان من شيء، نظرات مروان تفضحه دائماً، عيناه تتحرك فى كل الإتجاهات بخوف عظيم، الجميع ينظر إليه، ويعرفون حقيقة أمره، جسده يرتعش، الخوف عظيم، نظرات هذا السيد تصيبه بالتوتر، يشعرك أنه قبض عليك بالجرم المشهود، حاول مروان أن يتحرك فاعترض السيد الحاقد وصرخ على القهوجي أن يغلق الباب ويتصل بالشرطة، حاول مروان الفرار لكنهم كانو كثيرون، لمح مروان الأستاذ سعيد يجلس فى زاويه بعيده منسيه من القهوة تحرك مروان إليه بسرعة..

_ هذا الاستاذ سعيد، أعمل فى العمارة التي يسكنها، يعرفني جيداً ابنته ايضاً تعرفني، سيخبركم عني، استاذ سعيد .. استاذ سعيد

كان الأستاذ سعيد يجلس فى مكانه منذ هجرته صفية، لم يكن ينتظر أن تعود، رغم أنه تمنى ذلك، كما فعل فى كل ليلة كانت طفلته تصرخ، فتمنى أن تعود زوجته لتهدهدها وترحل من جديد، سأل الأستاذ سعيد أسئلة لا تحصى ولم يحصل على أي إجابات، كان البرد يزداد كل لحظة فيجلعه يتمسك بالكرسي أكثر فلم يقدر أن يعود لمنزله، هذا البرد الذي بدأ مع قبلة صفية ..

إقترب مروان من الأستاذ سعيد وهو يتمنى أن ينقذه من تلك الورطة، رأى الأستاذ سعيد يعقد يده فوق صدره ورأسه تميل للأمام وضع مروان يده على كتفه ظناً منه أنه قد غفا وهو يجلس كما حدث فى عيد الميلاد، لكن جسد الأستاذ سعيد سقط على الارض، وجهه ابيض كالضباب يميل للأزرق، وضع مروان يده فوق جبينه فشعر بأن البرد تجمع فى جسد الأستاذ سعيد، إقترب طبيب كان يجلس في المقهى و تحسس النبض في رقبته وضع رأسه فوق قلبه ثم نظر للجميع بهدوء، و أعلن وفاة الاستاذ سعيد ..

31

وقفت صفيه تستند على إحدى السيارات تدخن سيجارة وعقلها في شرود تام، حاولت أن لا تفكر فى الأستاذ سعيد لكن لم تقدر، لم تلحظ وجود الضابط الحاقد دائماً، ينظر إليها منذ دقيقتين، لم يجرح صمتها صوته الخشن، إنتفضت صفية حين وضع الضابط يده على ثديها فنظرت إليه بغضب لكنه لم يهتم ..

_ قلبك يلهث كحصان يحاول أن لا يخرج من السباق

_ ضابط أنت ام فيلسوف متهم بالمجون

حاولت صفية الإنصراف لكنه جذبها من يدها وهمس لها .. " أريدك "

إستسلمت صفية له، فهي ككل المواطنين تدفع ضريبة على عملها، تعلم الآتي، يصرف الضابط رجاله ويصعدان الى سيارة اجرة ويذهبان إلى شقته ليمارس معها كل أشكال القمع وهى يجب ان تستسلم كالمواطن الشريف ..

صرف الرجال .. أوقف سيارة أجرة .. سأله السائق عن المكان الذى يريده

_ كازينو الشاطبي

نظرت له صفية فابتسم ونظر إلى البحر..

_ تغيير

32

وقف أمام باب الشقة بتردد، هل يدخل أم يذهب للنوم في أي فندق حتى يحصل على شقة أخرى، لكن في النهاية فتح الباب لم يشعل الاضواء سار على خطى ذكرياته القديمة في هذا المكان فتح الشرفة وجد بها كرة وبعض الاشياء الأخرى .. عاد ليجلس على احد الكراسي دون أن يزيل عنه ما تراكم من سنوات، نظر حوله يبحث عن أهل هذا الدار الذين فرقتهم يد عبثية الهوى، علقت عيناه فوق الصورة العائلية التي سقطت على الأرض ولم يعلقها أحد .. سمع صوت أبيه يتردد كصدى الصوت:

_ لا بد أن نلتقط صور لنا .. كعائلة اقصد ..

كعائلة .. كعائلة .. كعائلة

أبيه الذى أورثه شراهة التدخين وتجاعيد القلب ..وحب كتابة الرسائل الغامضة ..

على الطاولة التي تتوسط الصالة وجد رسالته، لم تقوى أخته على قراءتها خوفاً من أن تحتوى على لعنة جديدة ..

نظر إلى صورة أخته، صفية التي لم ترى أبيها لكنها تتبعت أثره في كل حكايات العائدين من الحرب، تسألهم أن يحكوا لها عن بطولاته في المعارك وكانت تكتب كل يوم عشرات القصص عن أبيها البطل.

قرر أن ينام ليتوقف عقله عن التذكر

لعن أبيه عشرات المرات، بكى و ضم نفسه كالجنين وغرق فى النوم.

33

_ هل ترغب في شيء آخر يا سيدي ..

_ عمرك يا ابن القحبة

قالها ثم القى جنيهان على الارض و جذب ابنته من ذراعها ومضى، فكر علي أن لا يلتقط النقود لكنه تذكر أن هناك أشياء تنقص البيت، أمه التي تعتمد عليه في سد جزء من احتياجات البيت بعدما هجر البيت صاحبه .. وترك خطاب.

جلس علي خلف صندوقه، وهو ما زال ينظر للنقود، يعلم أنه في وضع لا يسمح بالتذمر من معاملة الناس.

_ ليس للأطفال كرامة يا علي

_ تقصد ليس لك كرامة يا علي

علي ابن أمه، علي الذى يسخر منه الجميع حين يلقبونه "رجل البيت " يسمع همسات الناس الذين لا يهتمون بوجوده ويتحدثون عن أمه، تلك الشهوة التي تلمع في عيونهم، إستعدادهم لدفع مبالغ لمعرفة مذاق هذا الجسد الفضي، يعتقدون أن هناك من يمتلكها ويدفع الكثير لتكون له وحده، لم يقدر علي أن يصرخ فيهم و يقطع ألسنتهم، لو كان أبيه هنا؟ هاا ماذا كان سيفعل؟، لا شيء، أبيه الذي لم يعرف عنه شيء سوى دخان السجائر وملابس الشتاء التي كان يرتديها طوال العام، كأن البرد يصدر من داخله، لم يأخذ من أبيه اى ملامح أو صفات، كأنه حين غرس البذور داخل أمه نزع بصمته منها.

كان علي ينظر إلى الشارع لكنه لا يرى، الصخب يملأ الهواء حوله لكنه لا يسمع، طفل فى العاشرة من عمره يفكر كيف سيحصل على طعام اليوم؟، أما إيجار الشقة الصغيرة التي يعيشان بها فيتكفل به معاش جده، ينظر لحذائه الذي يكشف عن أصابعه ثم يحسب على أصابع يده الأشهر الباقية حتى العيد القادم ليتمكن من الحصول على حذاء من الجمعيات الخيرية.

_ لو كان أبيك هنا!!؟

_ كنت أفرغت فيه غضبي من كل ما يحدث لي.

علي لم يذق يوماً حضن أبيه ، لم يجالسه ليسأل عن أحوال المدرسة أو الأصدقاء، لم يحضر له أشياء حلوة ككل الآباء الرحماء ..

أبي كان صنماً، لا يجيب دعاء المؤمنين، وأنا أمسك فى يدي الفأس بتردد.

34

جلست كامليا تنظر إلى ابيها الممدد على السرير لا نبض فيه، لم تتحرك منذ ساعة تقريباً، وقف مروان يتأملها، لاول مرة يراها فى ثياب منزلية، كم تشبه العصافير الملونة..

رغم أنها لم تبكي إلا أن عينها تشعرك أنها لم تتوقف عن البكاء..

_ في الصباح سيأتى الجميع لدفن الأستاذ سعيد

حاولت التحرك لكن أصابها الدوار، أمسك بها مروان، كانت بشرتها ناعمة، ملمسها يشبه الخوخ، أدخلها إلى غرفتها، سقطت كامليا على سريرها وأغمضت عينها، إرتفع الفستان فكشف عن جسدها بينما وقف مروان ينظر إليها، لثوان اعتقد أنه تحت تأثير الضرب ويتخيل كامليا هكذا، إقترب مروان من قدمها وأخذ يشم رائحتها صاعداً الى أعلى، توقف أمام شفتيها، إقترب بهدوء ولثمها بخفة أحس أن في فمه طعم البرتقال، تذوق رقبتها وصدرها .. فتأكد.

كامليا شجرة البرتقال ..

فأوحى له الشيطان أن يأكل من الشجرة التي مات صاحبها، انقض عليها بجسده القوي يحصد ما يقدر عليه من الثمار، حاولت كامليا المقاومة، ظهرت أمامها صورة الضابط فوجدت نفسها تستسلم ولم تأت بأى حركة بينما مروان يعتصر ثمار البرتقال

قطع مروان الطريق الطويل المؤدي إلى ما بين قدميها وحين أوشك على اقتحام الحصون إرتعد فجأة و انسحب حين وجد أن هناك فرسان قد تركوا علاماتهم على جانبي الحصن، هناك خدوش وعرق المعارك، إبتعد لثوان يفكر، لم تتحرك كامليا، عاد الخوف يسيطر على مروان، إرتعش جسده،

تلك العلامات مألوفة بالنسبة له، يتركها الحقد حين يحاصرك فى الغرفة الضيقه بضوئها الاصفر الخفيف، هناك صراع داخله بين الخوف و الشهوة، وكامليا تبكى فى صمت، جسدها كان يصدر بريق كالفضه فى ضوء الشمس فانعكس البريق فى عين مروان وردد عقله فكرة.

_ كالباقون .. مروان مر من هنا

يكون غازياً ولو مرة، يكون حاقد هو ايضاً، فيقوده الحقد بجنون للحصول على الشيء الوحيد الذى تمناه فى عمره.

ان تكون منتصر..

يبدوا هذا الشعور الجدير بالتفسير في طريق سيره فى الشوارع والثقة التي ترسخ أقدامه على الأرض، عيناه يملأهما الفخر والقوة دون أن يخشى من أحد، كأنه اعتدى على الجميع، إنتقم من المجتمع كله في كامليا ..

لكن حتى ذلك الإنتصار الصغير لم يستمر..

35

_ ما هو اسمك

_صفية صالح

_ أين عائلتك؟

_ قتلهم الموت والسفر

_ أريدك ان تتوقفي عن العمل

_ ثم؟

_ نتزوج

_ تتزوج مومس؟

_ لن يعلم أحد، ستكوني مومس أيضاً لكن لي فقط

_ ثم؟

_لا شيء

_ لن ننجب

_ لن أقطع وعد بذلك

_ تقدران تحصل على أي بنت، لماذا أنا؟

_ أكثرالاسئلة نرجسية وعنصرية .. لن أمدحك

_ هناك شرط ..

_ كأني لم أسمعك

_ لا تكتب لي خطاب ابداً

36

سأل الأستاذ كامل حنان عن الخطاب للمرة الألف، لكنها فقدت أعصابها فى وجهه هذه المرة..

_ أنت أرسلت الخطاب لأصحابه يا كاامل ، كفى سؤال.

_ كيف أرسلته و انا لا أتذكر الاسم أو العنوان

_لا أعرف، إسمع سنذهب لمكان ما إرتدى ملابسك ..

دخلت حنان إلى محمود، قبلته بدلال وبدلت ملابسها أمامه وهو يتأمل شبق جسدها الذى يتساقط من بين مسام جلدها، همست إليه ..

_ سأخرج و لن يعود كامل.. و أنت ستعيش معي

إبتسم وحرك رأسه، خرجت حنان من الغرفة ثم تبع ذلك صوت إغلاق باب الشقة ..

كانت حنان تفكر في إشباع شهواتها الجامحة فقط، تفكر في أن تظل تحتفظ بشبابها، محمود شاب يمكن أن تعتمد عليه في هذا الأمر و في أمور أخرى، كل ما كانت تفكر فيه طول حياتها أن تكون من الناجين حين يأتي الطوفان أو بالمعنى الأدق حين تخلق طوفان لتعيد تشكيل حياتها، بدأ الأمر مع سعيد، و طوفان ثان سيطيح بكامل، و يبقى محمود والنقود التي ورثها عن والديه ..

وقف كامل امام "حلويات ديليس"، دخلت حنان ثم خرجت من الباب الآخر، وبقى كامل ينتظر و يحاول ان يتذكر اسم صاحب الخطاب..

37

على رصيف البحر جلس خالد يلقى الهموم التي حملها من الشقة، قرر أن لا يعود هناك مرة أخرى، ينقش الموج داخله زمن جديد، ليهرب من سنون لا يعرف كيف يتخلص من محبسها .. لكنه يحاول.

_ أريد أن أسافر

صوت حزين همس بجواره، نظر خالد الى صاحب الصوت، وجده عيون مهترئة من البكاء، يسكنهما حزن يوازي ما يحمله هو فوق صدره.

_أريد أن اهرب

محمود الذي خرج من شقة حنان بعدما غادرت دون ان يعلم الى اين يذهب، ظل يمشي في الطرقات وهو يبكي كما لم يفعل من قبل، لم يهتم بتلك الاسئلي التي ظهرت في عيون الناس، إبتعد عن كل الأماكن التي جمعته مع كامليا، الاماكن التي فسدت.

عاد خالد ينظر للبحر، الذي طلما ابتلع الاحاديث التي لا تحكي لأحد

_ حين تسافر تتخلى بلادك عنك، تصبح كالضائع وسط زحام المولد، تتحول إلى إنسان مطارد من كل شيء حتى ذكرياتك، كل البلاد التى تسافرها تحولك الى خطر يجب ان يُقضي عليه.

_ هذه المدينة ملعونة بكل تفاصيلها، تعيدك السلطة هنا الى عصر العبوديه، لتصبح خادم عند من يجلسون على المقاعد الوثيرة، الناس هنا ماتو منذ عقود و انتهت من جو انحهم روح الدنيا ، لن أحتمل أن أبقى و أرى جرحي يوضع فوقه الملح كل يوم حين أرى الضابط مازل يتمتع بالحياة، لا شيء لي هنا غير ملح البحر.

_ لا تحمل معك شئ يدل عليك، حتى لا تتعرف اليك ذكرياتك هناك

_ لم يبقى لى شئ ، مازلت سجين عارياً لديهم

_ ماهو اسمك

_ محمود عبد الواحد

_ و انا خالد صالح

_ ساكتب إلى اهلي خطاب و اسافر.. وداعاً

لا شئ جديد ، حكايات تُعاد و النتيجة لا تتغير..

38

الصباح، لم تخرج الشمس، الغيوم تحجب الضوء، استيقظت كامليا كالبضاعة المستعملة لا تقوى على شيء، خرجت من غرفتها فلم تجد أبيها، إرتدت أول شيء كان أمامها، ركضت إلى الشارع، تسأل الناس عن جنازة مرت من هنا، لا أحد يجيبها، تبحث عن مروان في غرفته لكنه قد جمع حاجاته ورحل، أصبحت الطرقات أطول و أكثر زحاماً والناس عيونهم تتربص بها في كل خطوة، تسأل كل من تلقاه عن جنازة مرت من هنا، ذهبت إلى كل المساجد تسأل عن شخص صلوا عليه اليوم لكنها وجدت المساجد قد أغُلقت، جلست على الرصيف أمام مسجد القائد إبراهيم تأمل أن يأتي أحد فتسأله..

مر وقت الصلوات كلها ولم يُفتح المسجد، الشارع خالٍ تماماً، النوم يباغت كامليا كل لحظه لكنها تعود لتتماسك لكن في النهاية غلبها النوم على الرصيف ..

كان خالد يسيروهو ينظر إلى السماء بين الحين والآخر، كأنه يطلب المساعدة من أحد قد يفعل ذلك، لكن القدر الذى عبث به كل تلك السنين لن يكون رحيماً به الآن فقط لأنه عاد إلى الإسكندرية فهذا سبب ليستمر في العبث به طالما في الأمر متعة.

تعثر خالد في شخص يتمدد على الرصيف يهتز من البرد، وجه أنثوي شاحب يميل إلى الأزرق، إقترب ليتفقدها، جذب يدها، حرك رأسها، برفق فلم تتحرك، صفعها بقوة فاصطدمت بالأرض، فتحت عينها وكان هناك دمع متجمد داخلهما، حاول خالد حملها على الوقوف لكنها ابتعدت عنه، لم يفهم خالد سبب ذلك إلا أنه حاول مرة اخرى..

_ إنتى بخير.. ؟

لم تجد كامليا شيء لترد به، نظر إليها خالد ولم يدر ما العمل، إقترب منها خالد، خلع الجاكيت، وضعه على جسدها الذى ينتفض من البرد، نظرت كامليا إلى وجه خالد قراءة في ملامحه أشياء عن الحزن واليأس والهزيمة .. أمسكت في يده الممدودة إليها و تحركت معه برضا ..

_ أين هو منزلك؟ ..

_ راس التين ..

_ تاااااكسي .. تاااااكسي

حفرت سيارات الأجرة الأسفلت أمامهما، صعد الإثنين إلى السيارة، و انطلق السائق..

39

أعرف هذا الشعور حين تتخلص من أكثر الأشياء التي تثقل كاهلك فتعود إلى بيتك منتشياً، تتحرك بحيوية كبيرة، وجهك مضاء بأبتسامة مشرقة تخفي الهالات السوداء أسفل عينيك.

هذا ما كانت تشعر به حنان بعد أن تخلصت من كامل وعادت إلى البيت، كانت تتجاوز درجات السلم إلى الطابق الثاني برشاقة، دخلت حنان إلى الشقة، أغلقت الباب، بدأت في خلع ملابسها في طريقها إلى الغرفة التي ينام بها محمود، فتحت الباب وهي عارية فلم تجده، أخذت تركض في الشقة تبحث عنه بلا جدوى، وقفت عارية في منتصف الشقة، حدثت نفسها بأشياء كثيرة وقديمة، عاتبت فيها الشيطان وعاتبها الأخير على كل ما فعلت، و تبرء أن يكون هو من حرّضها ..

في نفس الوقت الذي كانت حنان تعيد فيه التفكير في حياتها وتقرر أن تستسلم لوحدتها و شيخوختها التي أوشكت على القدوم، كان مروان مطارد، عاد كالفأر تطارده كل قطط الشوارع و أصحاب المحلات والمنازل، مروان الذي انتقم من الجميع حين عمق جراح كامليا، ومر من بين قدميها كالباقون وظن انه قد يستريح كالفاتحين ويحتفل بالنصر، عاد يسلك الحارات الضيقة هروباً من ازدحام الطرقات العامة، يوماً كان مروان يهرب من مجموعة تطارده، ركض بسرعة وطويلاً ليهرب منهم، إختبأ في أماكن كثيرة لكنهم كانوا يعثرون عليه فيعود للركض، صعد إلى منزل قديم بعمر سنين الإستقلال والحرب والسلام، طرق أول شقة لكنها كانت مهجورة فصعد للثانية، فتحت له حنان وهي تضع الروب على جسدها نظرت إليه و نظر هو إليها وهي تحاول إغلاق الروب ثم أدخلته ..

40

دخل الضابط إلى الشقة يسحب صفية خلفه كالدابة، أعطاها عقد الزواج العرفي ليبقى معها ومعه شيك بمبلغ كبيرلكنه مؤراخ ان لا يصرف إلا بعد عامين.

_ فقط

_ يمكن ان يكون غداً إذا مللت منك

لم تكن صفية تنتظر جواباً رومانسياً أو شيء يرضي أنوثتها، تحركت إلى غرفة النوم التى ملأها الضابط بكل ما تحتاج صفية، شعرت بسعادة كبيرة، نظرت إليه بامتنان لكنه لم يهتم..

_ لكل شيء ثمن

إقترب منها، أخذ يمرر يده فوق كل أهدابها، أخذ يقبلها بعنف وهو يضمها أكثر إليه، عانقته صفية لأول مرة، حاولت أن تسمتع معه كزوجة حقيقية، خلع ملابسه ثم مزق ثيابها، تحسس بشرتها بشفته، كان كلما غرق فيها أكثر يشعر أن رائحة قوية تخرج منها، رائحة حمضية .. رائحة برتقال ربما.

_ ورثتها عن امي ..

كانت صفيه قد توقف عن البحث عن أبيها فى أجساد الرجال، لن تجد رجل مثله، مثله بصورته السلبية تقصد، فكان عرض الزواج هو مكافأة النهاية لمهنة دفعها إليها شوقها لحضن أبيها، فكانت تقضى نصف كل ليلة مع أي رجل تشم رائحته في كل حنايا جسده، كانت تنام باقى الليلة في حضن أقرب الرجال شبه لأبيها، بدأ الأمر مع مدرس اللغة الإنجليزية في المرحلة الإعدادية و تطور مع الطبيب النفسي بعد ذلك واستمر مع نصف رجال

المدينة بما فى ذلك المتسولين والعمال، كانت تفعل ذلك لتشعر أنها ليست عاهرة، لا تبيع جسدها لكنها تمنحه كـ "هبة" أحياناً وتقايض به أحياناً في مقابل حضن أبيها ..

الان قد انتهى كل ذلك ، أو هكذا تمنت ..

عام فقط كان هو عمر أمنيتها ثم فسدت، لم تقوى على العيش أسفل هذا الإنسان الذي كان يتفنن في تعذيبها، كان مهووساً بالجنس السادي، ذات صباح، بعد ليلة عنيفة قيدها فيها الضابط فى السرير و اقتحمها عنوة من كل الإتجاهات قررت صفية الهرب، لم تفكر في طفلتها الجميلة، لم تأخذ صورة لها حتى، لم تكن تريد أي تذكار منه، أي تذكار..

41

جلس خالد على طاولة مستديرة تتوسط الصالة في شقة كامليا وقد تركت الأخيرة باب الشقة مفتوحاً تحسباً لأي شيء ، رغم أنها كانت على يقين من أن تلك الروح المهزومة لن تقوم بفعل أمر خسيس، كان خالد قد شعر بالدفء وبدأ النوم يراوده، وضعت كامليا فنجان قهوة أمام خالد، هناك أمر غريب في عيناه يسكنهما شيء غير معتاد لا أهل فيهم أو وطن أو حبيبة، شيء أقل قرباً وأكثر قسوة ..

_ الغربة

لم تشعر كامليا أن أفكارها بصوت إلا حينما أجاب خالد عن سؤالها، شعرت بخجل فكأنك دفعت شجرة برتقال فنشرت رائحتها في المكان، تخللت أنفاس خالد تلك الرائحة، نظر إليها وابتسم ليخفف الأمر..

_ كنت مسافر عبر الأرض، وعائد منذ يومين

_ هل لديك عائلة

_ قتلهم الموت والسفر

_ أبي أيضاً مات

_ هكذا قد يرتاح

الدقائق تمضي دون كلام، نظرات متبادلة، أدمن خالد عطر البرتقال، وأردت كامليا أن تسكن عيناه بدلاً من الغربة، ستحكي له كل ما حدث معها، فكر خالد أن يخبرها عن عائلته وخطاب أبيه، كانت هناك أشياء غامضة تقربهم وآلاف الاحزان والجروح تمنع ذلك، تحركت كامليا إلى الباب ..

أغلقت كامليا الباب ..

لا أعلم ماذا حدث في تلك الليلة بالتحديد فكلاهما لم يحكها ..

لكني أعلم أن خالد تزوج كامليا، ليس لشيء سوى أن يجد مكاناً يعيش فيه، أخبرته أمي عن الضابط ومروان وحبيبها وأخبرها هو عن الخطابات وعمال المناجم واللعنات وعمتي صفية، لم يتحمل أبي المدينة الملعونة أكثر من سنة وسافر وترك خطاب...

لنتوقف قليلاً لإلتقاط الأنفاس.. لن أحكى شيء آخر، فلا شيء جديد الحكايات تتكرر.

تجاوزت الساعة منتصف النهار الآن، تكاد رئتي تنفجر، ألهث ككلب يركض خلف ظله، أحمل فوق ظهري صندوق قديم تملؤه أشياء غير مهمة، قليلاً من البيرة الرخصية قد يكون مفيداً، أحب هذا المقهى ذو الواجهات العتيقة، أراقب الأمواج التي تهمس إلى الشاطئ أو تصرخ أحياناً، عشاق على الرصيف يتعانقون، إشتياقاً أو وداعاً، عابرون يمرون يلقى بعضهم السلام وآخرون يجثم الكلام الثقيل على ألسنتهم، أنا الوحيد الناجي من كل شيء والمصاب أيضاً ..

تمر السنوات وتترك على أجسادنا آثار لا تمحى مهما حاولنا ذلك، كل تلك الأحداث التي وقعت متتالية و متزامنة أحياناً، إستمرت سنين فى سكون تام، الكل تجمع حول المدفئة، لا أعلم كم مر من وقت فالأزمان تتناسل باستمرار وبسرعة، كل الحكايات التي نقلتها الألسن واستقرت في عقلي تصيبني كل ليلة بألم فظيع فأصحو غير مدرك حقيقة أى شيء حولي

أرى من خلال النافذة طفل فى عمر العاشرة يرتدي ملابس تصيبه بالبرد أكثر من أن تدفئه، أصابع قدمه تخرج من الحذاء يمسح حذاء رجل ضخم يتحدث في الهاتف يمسك في يده طفلته تأكل الشكولاته، ينظر إليها الطفل برغبة فى خطفها لكنه يتذكر شئ ما فيعود لينظر فى وجه الحذاء ..

يسأل الطفل نفسه و أسمعه كأن السؤال موجه لي ..

_ كيف وصلت الى هناا١

_ ساخبركم

لنبدأ ..

انا علي خالد صالح عبد القوي ..

إبن أمُّه ..

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017